



هى فى حياتى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هـــذا الزمن الذى طغت فيـــه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهـذا النـوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب.

المؤلف

١ – جزء من الحلم يتحقق ..

صديقى العزيز (رأفت).. سألتنى مراراً عن قصتى مع تلك السيدة ، التى استطاعت أن تنتشلنى من وهدة اليأس وتدفعنى إلى ذروة النجاح .. وأن تحيلنى من إنسان ضائع يائس محطم ، اسودت الدنيا أمام ناظريه، وتلونت بأصباغ شديدة القتامة .. إلى آخر ناجح متفوق ، يقبل على الدنيا من جديد بإصرار وإرادة ، جعلت منى أحد مشاهير هذا المجتمع .

وأذكر فى هذه المناسبة عبارتك التى لا أنساها قط ..

إن هذا التحول الذى أحدثته فى حياتى « جعلها أشبه بربان مقتدر ، وسعه أن يقود سفينة محطمة ، ليجتاز بها بحار اليأس ، راسياً بها إلى مرافئ الأمل والنجاة .. » .

إنها إحدى عباراتك الأدبية البارعة التى تجيد صياغتها.

لكن صدقنى حين أقول إن كل ما تستطيع أن تصوغه من عبارات ، لا يكفى للتعبير الصادق عن هذه السيدة التى عرفتها ، أو يوفيها حقها ..

وربما أن إلحاحك المستمر فى معرفة تفاصيل قصتى معها مردّه إلى أنك قد شعرت بحاستك الأدبية المتميزة ، أن تلك القصة تصلح لأن تكون مصدراً لإلهامك الروائى .. وأنك تستطيع أن تنسج منها خيوطاً لإحدى رواياتك القادمة ..

ومن أجل هذا كان ترددى وهروبى المستمر من كشف حقيقة تلك القصة ، برغم إلحاحك المتواصل ..

فقد كنت أشعر دائماً أن هذه القصة لا تصلح قط للمزايدة الروائية ، ولا لإضافة بعض التفاصيل الخيالية التى لابد أن يضيفها الكاتب لتلك الشخصيات الواقعية التى تكون مصدراً لإلهامه .

فقصتى لا تصلح إلا لأن تروى كما هى .. دون إضافة أى تفاصيل ، أو أى مزيد من خيال الكاتب .

إن ما ينقصها فقط هو دقة التعبير .. أو بمعنى آخر التعبير الصادق الأمين عن تلك المشاعر والأحاسيس ، والعواطف النبيلة ، التى عشناها فى تلك الفترة التى قضيناها معاً ..

وبما أنك قد وعدتنى — وأنا أصدق هذا الوعد — بأنك لن تكتب عن هذه القصة ، وأن تفاصيلها لن تتعدى كلينا .. فسوف أروى لك يا صديقى قصتى معها ، وما أحدثته هذه الإنسانة فى حياتى .

لقد بدأت هذه القصة بعد هجرتك إلى كندا منذ سنوات طويلة مضت .. وإن كانت مقدماتها قد بدأت قبل ذلك بكثير .

بدأت منذ ارتباطى بالإنسانة الأخرى التى كانت — وقتئذ — تمثل بالنسبة لى صورة حية رائعة للصدق والحب والإخلاص .

الصدق والحب والإخلاص !! مشاعر وأحاسيس لم تكن سوى صورة وهمية نسجها خيالى وحده .. وعاشها قلب مخدوع لرجل غررت به عواطفه ، فأعمت عينيه عن الحقيقة برغم وضوحها .

بدأت القصة منذ ارتباطى بـ (كريمة) .. وأنت تدرك جيداً ماذا كانت تمثله (كريمة) فى حياتى .

لقد كانت الحلم الذى تفتحت عليه عيناى مذ كنت طالباً فى سنواتى الأخيرة بالجامعة .

حلم شاب لا خبرة له ، ولا تجربة ، لم يسبق له العوم فى بحار الحب وأمواجه بكل ما كان يصوره خياله البرىء عن هذه البحار من سحر وغموض ، وبكل ما تحمله أمواجها من مشاعر متناقضة ، تمثل فى خياله أروع سعادة يمكن أن يعرفها البشر ، وأعظم شقاء يمكن أن يكابدوه ..

لم يكن فى حياتى أيامها سوى الدراسة والرغبة الجارفة فى النجاح والتفوق .

وكانت كتب القانون هى شركاؤك الوحيدون فى صداقتنا الحميمة إلى أن عرفت (كريمة) .. وعرفت معها تلك المشاعر المجهولة التى لم يجرّبها قلبى من قبل .

ولم يعد النجاح والتفوّق يمثل بالنسبة لى هدفاً فى حد ذاته ، قدر ما أصبح بالنسبة لى وسيلة .. وسيلة تقرّبنى من الاقتران بهذه الفتاة التى عرفت معها — لأول مرة — معنى الحب .

وصارت (كريمة) هى كل شىء فى حياتى .

أقبلت على حبها بمثالية ساذجة ، ورومانسية شاب عديم الخبرة ، لا يعرف من الألوان إلا الأبيض والأسود .. فلم تستطع عيناى أن ترى تلك الجوانب الرمادية التى تكمن فى شخصية هذه المخلوقة .. هذه المخلوقة التى كانت أكثر واقعية فى تعاملها مع عصرها .

ذلك العصر المادى الذى أصبح لكل شىء فيه ثمنه حتى العواطف والمشاعر .

ولأن الله خلقنى إنساناً حساساً عاطفيًّا بطبيعته ، يتعامل مع ما يدور حوله من خلال مجموعة من القيم والمثل ، والمبادئ التى ترسخت فيه ، وأصبحت جزءاً من تكوينه .

فلم أستطع أن أفسر هذه النظرة التطلعية برغم وضوحها فى (كريمة) .

بل ربما كنت أدارى هذا التفسير — برغم إدراكى له — وأتعمد عدم الفهم حتى لا أشوّه تلك الصورة

الوهمية التى نسجها خيالى حول الحب والصدق والإخلاص التى توهمت أنها تملأ كيان هذه المخلوقة .

إلى أن تخرّجنا ، وبدأت أشق طريقى للنجاح فى عالم المحاماة .

وتحقق جزء من الحلم ، الذى سعيت من أجله ..

خطبت (كريمة) وشعرت أن الحياة قد بدأت تقبل علىّ بكل بهجتها وسعادتها !!

* * *



٢ ـ صراع بين اتجاهين ..

صديقى العزيز (رأفت) .. معذرة إليك .. دعنى أتوقف عن الاسترسال لحظة .. فكلما انتهى تفكيرى إلى ما سأسرده عليك ، أشعر حقيقة أن قلبى ينزف ..

فذات يوم كنت جالساً فى الكازينو المطل على النيل فى انتظار (كريمة) ..

وطال انتظارى فى هذا اليوم ، فقد تأخرت عن موعدها على غير العادة ، إلى أن حضرت أخيراً .

ابتدرتنى قائلة وعلى وجهها تغير أقلقنى :

ـ مساء الخير يا (مدحت) .

أجبتها وأنا متراوح بين الغضب والقلق :

ـ مساء الخير يا (كريمة) .. ماذا أخرك كل هذا الوقت ؟

علا صوتها على غير العادة حين قالت :

ـ ليس المهم هو ما أخرنى .. المهم أننى قد أصبحت فى موقف حرج للغاية أمامهم فى المنزل .

خطوبتنا طالت .. وأنت ما زلت واقفاً مكانك ، لا تتحرك إلى الأمام خطوة واحدة .

قلت وأنا أحاول السيطرة على صوتى :

– وماذا فى وسعى ولم أفعله ؟.. أنت تعرفين أننى ما زلت محامياً مبتدئاً .. لقد انتهيت من فترة التمرين منذ أشهر قليلة ، ولكنى بدأت أضع أقدامى على الطريق .

إن الأستاذ (فوزى) يتنبأ لى بمستقبل باهر فى عالم المحاماة ، ويقول لى إننى أمتلك استعداداً طيباً للغاية ، لكى أكون محامياً مرموقاً ....

قاطعتنى قائلة :

– هراء .. كل هذا محض هراء .. أتعرف كم من السنوات يتطلبها محام مبتدئ مثلك ؛ لكى يفتتح لنفسه مكتباً يدر عليه دخلا محترماً ؟!

وكم من السنوات الأخرى التى يستطيع خلالها تكوين نفسه .. أن تكون له شقة مناسبة .. وسيارة ... إلى غير ذلك من متطلبات الحياة الأساسية ؟!

ألا تنظر إلى صديقك (صلاح) ؟ ألا ترى أنه خلال العامين اللذين أضعتهما فى التمرين بالمحاماة ، أصبح يمتلك

شقة فى الزمالك وله بدلا من السيارة ثلاث ، ودخل ثابت يزيد على ثلاثة أضعاف دخل ذلك الأستاذ الذى تعمل فى مكتبه ؟!

قلت وأنا أغالب انفعالاتى :

– لا تنسى أن (صلاح) لم يأت بكل ذلك من فراغ .. إن والده يمتلك شركة للتصدير والاستيراد متعددة الفروع ، فى أجزاء مختلفة من العالم ، وقد جعل ابنه شريكاً له بنسبة أربعين فى المائة ، مما تدره هذه الشركة .

أما أنا فلم أولد وفى فمى ملعقة من ذهب مثله .

قالت وفى صوتها حدة :

– إننى لا أطلب منك أن تكون مثله .. لأنك مهما حاولت فلن تستطيع ، ولكن على الأقل حاول أن تستفيد منه .

لقد عرض عليك أن تعمل معه فى فرع الشركة فى الخليج .. ولكنك رفضت بكل إباء ، وبدلاً من أن تشكره قدمت له دروساً فى الإخلاص للمهنة ، وعشقك للقانون ، ورسالتك نحو العدالة .. إلى آخر هذه الدروس العقيمة المكررة ، التى لا تفتح بيتاً ، ولا تقيم حياة .

– (كريمة) ، أنت تعرفين أننى أحب المحاماة ، وأجد نفسى فيها .

إننى لم أنجح وأتفوّق ، وأنكبّ الليالى على دراسة كتب القانون ، لكى أعمل فى النهاية عملاً تجاريًّا لا أفهمه.

– و (صلاح) .. ألم يكن زميلك فى هذه الكلية التى نجحت ، وتفوّقت فيها ؟

ربما لم يكن ناجحاً ومتفوّقاً مثلك فى دراسته ، ولكن المهم أنه أصبح إنساناً ناجحاً ومتفوّقاً فى عمله .. ذلك العمل الذى تنبذه مدعياً عدم فهمه .

– لا تنسى أيضاً أن المحاماة لها نجاحها المادى .. كما أن لها قيمتها الأدبية .

– نعم .. ولكن ذلك النجاح المادى يتطلب وقتاً طويلا حتى يتحقق . وقتاً يمكن اختصاره فى عامين فقط من العمل مع مليونير مثل (صلاح) ..

– إن المحاماة مثل الطب .. تحتاج إلى الممارسة .. وهذا العمل الذى يعرضه علىّ (صلاح) سيحرمنى بالتأكيد هذه الممارسة ، ثم إننى اجتزت امتحان الماجستير ، وأعد نفسى

الآن للدراسة (الدكتوراه) فى القانون الجنائى ، وبدأت أحضر الرسالة بالفعل .

– حسناً .. افعل ما يحلو لك .. ولكنى أحذرك أننى لن أتحمل الانتظار عدة سنوات أخرى .. وما لم تتحرك سريعاً فى الاتجاه الصحيح ، فستصبح خطبتنا مهددة بالفسخ.

– (كريمة) .. ماذا تقولين ؟ هل أصبحت الأمور بيننا مقصورة على الماديات فقط ؟ وأين الحب الكبير الذى يجمعنا ، والذى كانت تذوب أمامه كل العوائق والموانع؟

أنت تعرفين أن تأخير زواجنا يرجع إليك أنت لا إلىّ .. فقد عرضت عليك أن نتزوج فى شقتى الصغيرة بعد وفاة والدتى ، ولكنك رفضت ذلك .

– وهل تسمى ذلك الجحر شقة ؟ لا .. أنت تعرف شروطى جيداً حول الشقة التى سأعيش فيها ، والحياة التى أحياها ، وأنا لن أتنازل عن أى من هذه الشروط .

ثم قل لى .. أين الدخل الذى سيكفى متطلباتنا ؟ هل تعتقد أننى أستطيع العيش معك بهذه الجنيهات القليلة ، التى تحصل عليها من القضايا التى يمنّ بها عليك أستاذك ؟

– لقد تغيرت كثيراً يا (كريمة) .

– أنت الذى لا تعرف كيف تتعامل مع العصر الذى تحيا فيه .

(مدحت) .. إننى ما زلت أحبك .. وهـذا هو ما يجبرنى على الاستمرار معك حتى الآن ، برغم أفكارك العتيقة هذه .

ولكن عليك أن تتغير .. عليك أن تجارى هذا العصر ، ولا تنظر للأمور من جانب واحد فقط .

إن النجاح الحقيقى فى هذا العصر لمن يملك الكثير من المال والثراء ، وليس لمن يملك الكثير من تلك القيم البالية التى عفا عليها الزمن ، ويتشدّق بهـا المتفلسفون ، مثل : الإخلاص للمبادئ ، والمثل العليا ، ورسالة العدالـة .. إلى غير ذلك من الكلمات التى لا تصلح إلا للروايات المثالية .

كانت ألفاظها وتعابيرها تتهاوى علىّ كالمطارق ، بل كالطعنات .. فهتفت وقد احتقنت سحنتى وفار دمى :

– والحب .. والعواطف .. والمشاعر العميقـة التى جمعت بيننا .. أليست كل هذه قيماً معنوية ، موجودة جنباً إلى جنب مع تلك القيم المادية التى عنها تتحدثين .

أجابت وقد اكتسى وجهها بتعبير لم أرتح له :

– إن الحب فى عصرنا هذا ، إذا لم تسنده الماديات لا يعيش طويلاً .

قلت وأنا أغالب مشـاعرى وأحاول السيطرة على أعصابى حتى لا أتهوّر ، فتصدر منى لفظة قد أندم عليها :

– برغم أننى غير مقتنع برأيك .. لكن ما المطلوب منى أن أفعله الآن بالتحديد ؟

لانت أساريرها ، فأدنت وجهها من وجهى ، وقالت فى اهتمام :

– لقد قابلت (صلاح) اليوم .. وعرضه بالنسبة لك لم يزل قائماً ، اذهب غداً وقابله فى الشركة .. قل له إنك موافق على العمل معه بالأجر الذى سبق تحديده .

– دعينى أفكر .

– لا وقت هناك للتفكير .. إن أمامك فرصة يحلم بها الكثيرون، إنها السبيل الوحيدة أمامنا يا (مدحت) ، لكى نسرع فى إتمام زواجنا ، وتحقيق أحلامنا .

– تقصدين أحلامك .

– من المفروض أن أحلامنا واحدة .

– لقـد كانت كذلك فيما مضى .. حينما كانت عواطفنا ومشاعرنا واحـدة .. عنـدما كان للحب القيمة الأولى فى علاقتنا .. إلى أن بدأت تلك القيم المادية تسيطر على تفكيرك تدريجيًا .

– (مدحت) .. لا تفهمنى خطأ .. إن حبك لم يزل له المكانة الأولى فى عقـلى وقلبى .. ولـكن هل تكره أن نعيش معاً حياة اجتماعية كريمة ؟

هل تكره أن تكون لك سيارة وشقة فى حى راقٍ ، وأموال فى البنك ؟

– ليس هناك من يكره ذلك بالطبع .. ولكنى أريد أن يأتى من خلال عملى الذى أحبه فى مساره المناسب ووقته المناسب ..

– هل سنعود إلى هذا الحوار من جديد ؟

– من أسف ، حتى لغة الحوار بيننا لم تعد مفهومة .

فليكن .. سأذهب لمقابلة (صلاح) غداً ؛ ما دامت هذه هى رغبتك ..

وأمسكت بيدى وقـد ارتسمت على وجهها ابتسامة ارتياح ، أو انتصار .. لا أدرى ..

* * *

٣ – حققت رغبتها ..

فى اليوم التالى ذهبت للقاء (صلاح) .. (صلاح) صديق القديم برغم الاختلاف الكبير بيننا .. فهو دائماً يحدد أهدافه فى إطار المصلحة .. والغاية عنده دائماً تبرر الوسيلة ، ويسمى هذه واقعية وفهماً للعصر .. نفس الأفكار تقريباً التى تعتنقها (كريمة) .

أما بالنسبة لى ، فالمبادئ دائماً كانت تحكمنى ، وتحدد لى إطار حياتى .. فالمصلحة من وجهة نظرى – إذا كانت على حساب الآخرين – لا تعدو أن تكون انتهازية رخيصة .

والغاية إذا كانت شريفة ، فلا يمكن تبريرها إلا بواسطة وسيلة شريفة ، ذلك هو فهمى الذى لا يتفق مع ذلك العصر .. لكننى لا أفهم سواه .. واستقبلنى (صلاح) بترحاب بالغ قائلاً :

– أهلاً (مدحت) .. شرّفت المكتب .. هل كان لابد أن ألتقى بـ (كريمة) أمس حتى تأتى لزيارتى ؟

– أهلاً بك يا (صلاح) .. لقد أخبرتنى (كريمة) أن العرض الذى قدمته لى من قبل لم يزل قائماً .. فهل هذا صحيح ؟

وابتسم (صلاح) ابتسامة لم أفهم مغزاها .. أهى ابتسامة رضا ؟ أم هى ابتسامة شماتة ؟ قائلاً :

– وأحلامك عن المحاماة ؟! ورسالة (الدكتوراه) ؟! ورسالتك نحو العدالة ؟! إلى غير ذلك من الأفكار التى كانت تسيطر على عقلك وتفكيرك ؟!

– أنت تعرف أن (كريمة) هى أغلى أحلامى .. بل إنها الحلم الكبير الذى تتساند معه بقية الأحلام الأخرى .

إننى أشعر أن (كريمة) ستضيع منى يا (صلاح) .. فأفكارها أصبحت تختلف كثيراً عن تلك الفتاة التى عرفتها أيام الجامعة .. وأخشى إذا لم أتجاوب مع هذه الأفكار أن أفقدها ..

– لا تلمها يا (مدحت) .. فأنت ما زلت غارقاً فى الأحلام .. أما (كريمة) فقد استيقظت ورأت كيف

تدور الحياة حولها .. عاشت الواقع ، فلم تعد قادرة على أن تعيش معك أحلامك المثالية ..

— إننى لا ألومها على ذلك .. فهى بنت عصرها .. وأنا أفهم صعوبات هذا العصر ، ومدى قسوتها .

لكن لماذا نزيده صعوبة عندما نصرّ على أن نقفز بدلاً من أن نخطو .. نحن الذين نزيده قسوة عندما نحوّل الطموح المشروع بداخلنا إلى جشع لا حدود له .

إن (كريمة) تريد اختصار الزمن .. وترفض البدايات البسيطة .. ترفض أن نحقق أحلامنا تدريجيًّا ، ونعيش لذة الكفاح ..

وضحك (صلاح) قائلاً :

— آه .. هأنتذا تعود مرة أخرى إلى الفلسفة .. فلسفتك التى حاولت دائماً أن أفهم جدواها منذ أن عرفتك فى الجامعة ، فلم أستطع .

وابتسمت قائلاً بمرارة :

— ولن تستطيع يا (صلاح).. فكلانا ينتمى إلى عالمه الخاص .

— ومع ذلك فنحن أصدقاء .. أليس كذلك ؟ دعنا نتحدث الآن حديثاً عمليًّا .

فى الواقع .. إن العمل الذى عرضته عليك فى العام الماضى قد شغله غيرك الآن .. وهذا بسبب ترددك وعنادك .

إننى لا أهدف من وراء ذلك بالطبع إلى العتاب أو التأنيب ، ولكن عليك أن تفهم فقط أن العمل المتوافر الآن قد يكون أقل فى قيمته من الناحية الأدبية عن العمل الذى عرضته عليك من قبل ، وإن كان من الناحية المادية لا يقل عنه كثيراً .

إنه على كل حال أفضل مما تحصل عليه من قضاياك القليلة هنا .

— ومتى يمكننى تسلّم هذا العمل ؟

— خلال أسبوع .. واترك لى مسألة إجراءات السفر .. ستعمل بأحد المكاتب فى شركتنا بالإمارات ، وسيكون عقدك لمدة سنتين قابلاً للتجديد .

- (صلاح) .. برغم كل ما آخذه عليك من مآخذ إلا أننى ما زلت أعتبرك صديقاً يمكن أن أثق به .

رجائى الخاص أن ترعى (كريمة) فى غيابى .

- اطمئن يا (مدحت) .. ستكون فى رعايتى كما لو كنت موجوداً تماماً .

- أشكرك يا (صلاح) .. وأشكر لك أيضاً الوظيفة .

* * *



٤ - صفقة رخيصة ..

وسافرت إلى الإمارات.. سافرت وصورة (كريمة) وهى تودعنى فى المطار بدموع غزيرة ، لم أعرف وقتها أصادقة كانت أم زائفة .. وبمشاعر دافئة لم أحظ بمثلها من قبل - لا تبرح خيالى .

معذرة إليك ياصديقى .. لا أريد أن أطيل عليك بتفاصيل قد لا تهمك كثيراً ..

ولكن لك أن تتصور أن تكون مضطراً إلى التفانى فى عمل لا تميل إليه.. وأن يضطر رجل مثلى أن يبتلع مبادئه ، وهو يغض بصره عن عمليات تجارية مريبة ، يراها تدور أمامه ، بل يشارك فيها وهو على يقين أنها غير سليمة تماماً .

لقد أقنعت نفسى بأننى المخطئ ، والآخرين على صواب ، وحملت نفسى على أن أعيش أسلوبهم .. حاولت أن أجعل من نفسى إنساناً آخر غير الذى كنته ..

وكانت صفقة رخيصة من أجل إنسانة لا تستحق .

كان ما يدفعنى إلى الاستمرار والمثابرة على ذلك العمل البغيض إلى نفسى ، تلك الرسائل المتبادلة بينى وبين (كريمة) .

عبارات التشجيع .. وكلمات الحب الفياضة التى كانت تبثنى إياها فى خطاباتها .

ولكن شيئاً فشيئاً أصبحت الرسائل مختصرة ... والكلمات فاترة .. إلى أن انقطعت عنى رسائلها تماماً .

وذات يوم وصلتنى رسالة كانت بمثابة الطعنة النجلاء فى صدرى .. رسالة موجزة كسائر رسائلها الأخيرة .. لكنها هذه المرة كانت تختصر معها أحلامى كلها .. تختصر كل ما يدور فى رأسى من معانى الوفاء والإخلاص والصدق .

وقرأت تلك العبارة الأخيرة فى رسالتها .. قرأتها مراراً وتكراراً وأنا لا أكاد أصدق .. كانت تقول :

« عزيزى (مدحت) .. أرجو أن تغفر لى .. فقد كانت الظروف أقوى منى .. هذه هى الرسالة الأخيرة التى أكتبها لك ، فسوف يتم عقد قرانى فى نهاية هذا الأسبوع .

مرة أخرى .. أرجو أن تغفر لى وتسامحنى .. فربما لم أكن أفضل إنسانة قابلتها فى حياتك .. لكنك بالنسبة لى أفضل إنسان عرفته فى هذه الدنيا .. لذا فأنا متأكدة من أنك ستغفر وتسامح » .

وتمرَّد قلبى على أن يصدق .. كنت على استعداد لأن أكذب العالم كله ، ولا أصدق أن (كريمة) يمكن أن تتخلى عن حبنا بهذه البساطة ، طالبة منى فى النهاية الغفران والتسامح .

لقد غفرت وسامحت كثيراً من أجل حبى لها .. حتى ما كان يبدو منها من أطماع مادية، برغم أنه يبعد كل البعد عن مواصفات الحب الذى تمنيته ، إلا أننى كنت أغفر لها ، وأعد ذلك من النزوات المشروعة ، التى لا تصل أبداً إلى حد الخيانة .

غفرت عبثها بأحلامى وآمالى ، وارتضيت لنفسى السفر والعمل فى مجال لا أحبه ، ولا يستريح ضميرى إلى القيام به ، من أجل أن أرضى أطماعها ..

غفرت كل ذلك ، وكنت على استعداد أن أغفر ما هو أكثر من ذلك إلا الغدر والخيانة والجحود ..

وعدت إلى القاهرة .. سافرت لألتقى وجهاً لوجه مع الحقيقة .. وكم كانت قسوتها على نفسى !!

ليت الأمر اقتصر على غدر الحبيبة فحسب .. بل رأيت بعينى خيانة الصديق أيضاً .

فقد كان العريس الذى سيزف إلى حبيبة العمر هو نفسه ذلك الصديق الذى حملته أمانة رعايتها ، وحفظها لى حتى أعود .

ويا له من إخلاص ووفاء !! ويا لها من رعاية !!

واندفعت وسط المدعوين فى الحفل دون أن أدرى إلى أين تقودنى خطواتى .. حتى وصلت إلى مقعد العروسين .

وتلاقت النظرات ، وكل منها يحمل معنى مختلفاً .

ففى عينى تجسدت لوحة كاملة ، تنطق بكل ما يعتمل فى نفسى من شعور بالغبن والخديعة ، والحزن والألم ، والغضب والصدمة .

وفى عينيها كانت تلك النظرة الخجلة ، التى حاولت أن تخفيها دون أن تفلح .. فغلالة الخجل كانت رقيقة شفافة للغاية ، لم تفلح فى أن تستر تحتها معالم الغدر والخيانة .

وتذكرت فى هذه اللحظة ، كيف أن آدم هبط من

الجنة إلى الأرض بعد أن أغوى الشيطان حواء ، لتدفعه إلى قطف التفاحة .

وكم كانت هذه التفاحة ثمناً مادياً رخيصاً للخروج من الفردوس !!

وها هى ذى حواء أخرى تبيع نفسها للشيطان .. شيطان لديه كل الإغراءات المادية التى تتناسب مع العصر .. والتى ضحت من أجلها بفردوس الحب الذى يجمعنا .

وفى عينى (صلاح) لمحت ذات النظرة الشامتة .. الشماتة التى تعبر عن الحقد القديم ، الكامن فى نفسه نحوى ، منذ أيام الدراسة .

لم أكن أجد تفسيراً لهذه النظرة من قبل ؛ ولكننى الآن أدركت كنهها .. فقد رأيت ذات النظرة الحاقدة كثيراً من قبل .. رأيتها كلما تفوّقت عليه دراسياً ، ورأيتها كلما تفوّقت عليه أخلاقياً ..

لقد كان (صلاح) برغم كل ثرائه واستهانته بالتعليم ، والشهادات الدراسية يحقد على نجاحى وتفوّقى .

وبرغم كل ما توافر لديه من نجاح مادىّ ، يشعر

بالنقص إزائى ؛ لتمسكى بمجموعة من القيم والمثل لم تنهار تحت وطأة الظروف وماديات الحياة .

وقد حقق انتصاره الأول علىّ ، يوم ارتضيت الوظيفة التى رفضتها منه من قبل .. واعتبر ذلك استسلاماً لمنطقه الذى كنت أعارضه على الدوام .

والآن ها هو ذا يحقق انتصاره الثانى ، ويسلبنى أعز إنسانة عندى .

نظرات مختلفة فى عيون مختلفة !! ولكن كلها تجتمع فى النهاية لتقدم تلك التراجيديا المعادة على مرّ العصور ..

تراجيديا الحبيب المخدوع ، والصديق الخائن ، والحبيبة الغادرة .

وبصوت لايعرف الخجل ، وجدت (صلاح) يقول لى :

– أهلاً (مدحت) .. ألن تقول لنا كلمة مبروك ؟

لم أجبه ، فقد تجمدت نظراتى على وجه (كريمة) التى كانت تطأطئ رأسها إلى الأرض خجلاً .

وبقحة لا مزيد عليها مدّ يده إلى إحدى الصوانى ، ليأخذ منها كوباً من الشراب ، قدمه لى قائلاً :

– إذن تناول كوباً من شراب العرس على الأقل .

وبدون أن أدرى وجدتنى وقد انتابتنى حالة هستيرية لم أستطع أن أسيطر عليها .

قذفت الكوب من يده ، ليسقط فوق ثيابه ، وهجمت عليه ، وجذبته من ياقة الجاكت الذى يرتديه ، وأنا أهزه بعنف مردداً :

– خائن !! جبان !! نذل !!

لقد كانت هذه هى بداية انهيارى العصبى .. بدأت منذ هذه اللحظة التى تعاظم فيها بداخلى الشعور بالغبن والمرارة والخديعة .

ووجدتنى أسقط تحت أقدام المدعوين الذين هاجمونى ليخلصوا (صلاح) من قبضتى

وكان آخر ما رأيته هو وجه (إبراهيم) ابن خالتى الذى كان قد علم بمجيئى من السفر ، وتبعنى إلى هنا ، بعد تأكده من حضورى ، رأيته يندفع بين المدعوين ليخلصنى من بين أيديهم .

وبعدها غبت عن الوعى تماماً .

ولم أدر كم من الأيام ظللت فيها غائباً عن الوعى .. ولكنى أعرف أننى فى اللحظة التى استرددت فيها وعيى ظللت عدة أيام مذهولاً فاقد الذاكرة !!

وعندما استعدت وعيى من هذا الذهول، واستردت ذاكرتى المفقودة وجدتنى راقداً فى غرفة صغيرة بإحدى المصحات النفسية .

* * *



٥ ـ وحدة واكتئاب ..

لقد أردت فى اللحظة التى رأيت فيها (صلاح) و (كريمة) ليلة عرسهما، أن أبدو قويًّا متماسكاً ، ولكن عقلى وجسدى لم يتحملا قسوة الخيانة وجرحها .

فأصابنى انهيار عصبى ظللت أعالج منه ثلاثة شهور داخل هذه المصحة .

وعندما خرجت منها كنت قد تحوَّلت إلى إنسان آخر .. فقد هجرت كل شىء .. عملى واهتماماتى .. آمالى وطموحاتى .. وأسلمت نفسى إلى الوحدة والاكتئاب ، بعد أن زهدت فى كل ما فى الدنيا عدا أحزانها ..

ولم أعد أرى من الحياة سوى ذلك الجانب المظلم القاتم الذى ظلل حياتى بعد زواج (كريمة) من (صلاح) .

ومرَّت علىَّ شهور طويلة وأنا على هذه الحال .. لم يكن يطمئن علىَّ خلالها ، ويرعى شئونى فيها سوى (إبراهيم) ابن خالتى ، الذى ساندنى طوال هذه المحنة ..

وطالما حاول (إبراهيم) أن يخرجنى من حالة

الاكتئاب هذه .. وكم من مرة عرضنى على أطباء نفسانيين دون جدوى ! !

فقد أكد له أكثر من طبيب أننى بحاجة إلى علاج نفسى طويل ، ورعاية فى إحدى المصحات النفسية ، ولكنه كان يعرف أننى أرفض دخول مصحات نفسية أخرى .

وكنت أرى نظرة الإشفاق فى عينى (إبراهيم) وهو يقول لى :

– (مدحت) .. إن الأطباء يؤكدون أن العلاج بيدك .. فقط لو تحليت بقوة الإرادة .. عليك أن تخرج من عزلتك ، واكتئابك هذين .. عليك أن تكون أقوى من أحزانك .

وإذا لم تكن تريد أن تساعد نفسك .. فهناك بعض المصحات النفسية التى بها من هم على استعداد لمساعدتك ، وشحذ همتك وإرادتك ، حتى تصل إلى مرحلة الشفاء .

وكنت أجيبه وأنا زائغ النظرات .. شارد الفكر :

– ولماذا العلاج والشفاء لأعود من جديد لأشارك فى هذه الحياة الشقية ؟. حياة الغدر والخيانة.. حياة يباع فيها

الحب ويشترى .. حياة يزيف فيها الصدق .. ويداس فيها الوفاء بالأقدام .. قل لى لماذا أشفى وأعالج ؟ لأشارك فى حياة بشعة كريهة كهذه ؟!

– (مدحت).. إنك لست أول إنسان تخونه امرأة ، لقد حدث ذلك للكثيرين من قبلك ، وسيحدث للكثيرين من بعدك .

ومع ذلك فالحياة لم تتوقف ، ولن تتوقف .. لقد طرح الكثيرون قبلك هذه الخيانات وراء ظهورهم ، وبدءوا حياتهم من جديد بدءوا مع نساء أخريات أكثر وفاءً وإخلاصاً ، وحققوا نجاحاً باهراً فى حياتهم .. لم يستسلموا مثلك ، ولم ينهاروا على هذا النحو .

إن الدنيا ليست بهذه الصورة البشعة التى تتصوَّرها .. وفى عالم الأصدقاء .. والنساء كما فى كل شىء آخر يوجد الجيد والردىء .. الصالح والطالح .. فلا يوجد ما يدعو لأن تغلق حول نفسك هذه الدائرة السوداء ، وتسلم نفسك للوحدة والاكتئاب ، ليتحوَّل الأمر فى النهاية إلى حالة مرضية ، ليس لها سبب عضوى ، ولكن سببها نفسى بحت ، بيدك العلاج منه .

أجبت وأنا أحوّل وجهى عنه :

ـ أتعرف أنك تصلح لأن تكون طبيباً نفسيًّا ؟

إنك تشبه أولئك الأطباء الذين يجعلوننا نتمدد أمامهم ، ثم ينزلون فوق رءوسنا بمثل هذه الكلمات الرنانة عن التفاؤل والأمل ، والثقة بالنفس وبالحياة .

كلمات .. مجرد كلمات يسهل ترديدها .. ولكن الواقع شىء مختلف تماماً .. لو عاش أحدهم مثلى يؤمن بقيمة المثل والمبادئ ، التى تربى عليها طوال عمره مثلى .

لو أعطى أحدهم مثلى كل هذا القدر من الحب والإخلاص والصدق لإنسانة لا تستحق كل هذا .

لو عرف أحدهم مثلى صديقاً يزن كل شىء ـ حتى المبادئ ـ بميزان مادى رخيص ، ومع ذلك يؤمن بأنه قد يفعل أى شىء إلا أن يخون صداقته .

مثالية ساذجة بلهاء !! ظللت طوال عمرى أومن بها وأعيشها ..

وفجأة .. بعد كل هذا العمر ، كشفت أننى كنت الوحيد الذى لا أنتمى إلى هذا العالم .

لقد كان (صلاح) صادقاً ومدركاً لعالمنا الذى نعيشه ، وكذلك (كريمة).. أنا وحدى الذى عشت فى غيبوبة طويلة .. غيبوبة غرسها فىَّ والدىّ طوال حياتى ، وتأقلمت معها روحى .. غيبوبة الصدق والقيم والمبادئ ، فى عالم لا يعرف الصدق والقيم والمبادئ .

وفى النهاية ترددون كلمات .. مجرد كلمات أنتم أنفسكم تدركون أنها جوفاء ، ولا تساوى شيئاً فى هذا العالم الكريه .

أنا آسف يا (إبراهيم) .. ولكننى تعب .. تعب للغاية .. ليس الأمر .. أمر صدمتى فى خيانة صديق ، وغدر حبيبة ، ولكنها صدمتى فى نفسى .

أتعرف ما الذى أحسه لو فتحت شباكاً ، أو خرجت إلى الشارع .. إننى أشعر بأن الجميع يسخرون منى .. كل من يرانى يضحك منى ، ويقول هذا هو الأبله .. الساذج .. الذى يصدق الحب كما جاء فى الروايات ، والمبادئ كما يتشدق بها المتشدقون .

وأحياناً أشعر أنهم يشفقون علىّ .. على قيمى البالية ،

التى لم تعد تساوى شيئاً فى أسواق هذا العصر .

إننى لا أريد أن أخرج إلى هذا العالم .. إننى أخشى سخريتهم ولا أريد إشفاقهم .

هل تفهم يا (إبراهيم) ؟ أنا لا أريد إشفاقهم .

وانخرطت فى بكاء عنيف حار .

وربَّت (إبراهيم) على كتفى فى أخوة صادقة وهو يقول :

ـ ابك يا (مدحت) .. ابك إذا كان البكـــاء سيريحك .. فإننى أدرك جيداً ما يعتمل فى نفسك .

ولكن صدقنى الحياة ليست بهذه الصورة البشعة التى تتصوَّرها ، وكثيرون مرُّوا بمثل أزمتك ، وتخلصوا منها .

كل ما فى الأمر أنك حساس بقدر زائد ، وهذا هو سبب رد الفعل العنيف ، الذى أحدثه بداخلك زواج (صلاح) من (كريمة) .. اسمع يا (مدحت) ، ما رأيك فى هذا الإعلان المكتوب فى تلك الجريدة ؟

اقرأه بتأنٍّ ، وتمهل دون رفض مسبق ، وسوف أمر

عليك فى غد لأعرف رأيك .. وصدقنى أنه يتناسب تماماً مع حالتك ..

ووضع الجريدة أمامى على الصفحة التى فيها الإعلان ، ثم تركنى وانصرف .

لقد كان نص الإعلان كالآتى :

« دار القلوب المعذبة .. لقد أنشأنا هذه الدار من أجل كل أولئك الذين عذبتهم الدنيا بمآسيها ، فتركت بصماتها المؤلمة عليهم .

إلى الذين يعـــانون الوحـــدة والاكتئاب والحـــزن والمرض ، فلتلتقـوا جميعاً فى دار القلـوب المعـذبة ، ولتتشابك أيدينا جميعاً ، حتى نهرب من واقعنا الأليم » .

كان إعـلاناً غريباً ، لم أصادف مثلـه من قبـل .. وكانت شروطه ميسرة ، فلم يكن على الراغب فى الالتحاق بهذه الدار سوى تقـــديم طلب إلى صاحب الدار ، مرفق به تقارير حول ظروفه النفسية وحالته المرضية ، ليقرر صاحب الدار بعـد دراستها ما إذا كان يوافق على انضمام صاحب الحالة من عدمه .

وبعد تفكير عميق أخبرت (إبراهيم) بموافقتى على الالتحاق بهذه الدار.. وقام بتقديم الطلب الخاص بحالتى إلى الإدارة موضحاً فيه الظروف النفسية التى مررت بها ، ومرفقاً به الشهادات الطبية الخاصة بحالتى ،وتقرير المصحة النفسية التى عولجت فيها من قبل .

وبعد أيام قليلة .. جاءنى الرد بالموافقة على انضمامى عضواً مقيماً بدار القلوب المعذبة ..

* * *



٦ – فى دار القلوب المعذبة ..

وحملت حقيبة ثيابى ، ومضيت إلى هذه الدار ، وأنا عازم على أن تكون مقراً لعزلتى عن هذه الدنيا .

وهناك التقيت بصاحب الدار .. كان رجلاً يبدو فى الستين من عمره ، شعره أبيض فضى ، وتعبيرات وجهه مريحة هادئة .

كان من ذلك النوع الذى يبعث فيك الشعور بالاطمئنان ، والأبوة الحنون .

استقبلنى الرجل فى مكتبه، قائلاً بنبرات تنسجم تماماً مع ذلك الوجه النورانى :

– إننا نرحب بك فى دار القلوب المعذبة ، التى ستصبح منذ الآن دارك أنت الآخر .

إنها كما ترى تقع فى بقعة هادئة منعزلة ، حيث الهدوء والسكينة ، تتيح لك الفرصة للتأمل والتصالح مع نفسك ..

أجبته ، وقد ارتاحت نفسى بعض الشيء :

- إننى أرجو ألا تكون مشابهة لتلك المصحات النفسية التى يوضع فيها المريض تحت الملاحظة والعلاج .

فحتى العلاج زهدته ، ولم أعد أريده .

قال ، والبسمة لا تفارقه :

- إنها بالفعل دار العلاج النفسى .. ولكنها لا تشبه تلك المصحات التى تعرفها فى شىء .

إن أسلوب العلاج هنا بسيط ، ويعتمد على إرادتك ، ورغبتك الشخصية فى الشفاء .

فإذا كنت تريد أن تستسلم لأحزانك ومعاناتك النفسية ، إذا كنت من ذلك النوع الذى يستعذب الألم ، وترى أن الغرض من مجيئك إلى هنا هو الرغبة فى الهروب بهذه الأحزان عن العالم الخارجى ، والعزلة بها بعيداً عن الآخرين ، فلن تجد هنا من يحاول أن يفرض عليك أى وسيلة من وسائل العلاج ، ولن تجد من يقتحم عليك وحدتك وأحزانك .

أما إذا كنت تبحث عن وسيلة للنجاة والهداية ، وتوافرت لديك الرغبة والإرادة فى اجتياز المحنة التى تمر بها ، فالعلاج هنا لا يعتمد على أطباء أو إخصائيين ، قدر اعتماده على ساكنى الدار أنفسهم .. إن كل من سوف تقابله هنا لديه آلامه وأحزانه الخاصة به ، فإذا احتجت أن تشكو همومك وأحزانك للآخرين ، فستجد منهم من يستمع إليك ، ويشاركك معاناتك ، وهذه إحدى وسائل العلاج هنا .

وإذا أردت بدورك أن تسهم فى الاستماع إلى هموم الآخرين وآلامهم ، التى قد تفوق أحزانك الشخصية ، فسوف تجد هنا الكثير من القصص التى تستحق أن تروى ، ولا تحتاج منك إلا إلى بضع كلمات من التشجيع والمشاركة ، وهذه أيضاً إحدى وسائل العلاج .

فالهدف من إنشاء هذه الدار ، أن يتشارك الجميع فى مشاعرهم وهمومهم الشخصية قبل أن تكون مقرًا للعزلة والراحة النفسية ..

باختصار أن تكون أنت الطبيب والمريض فى آن معاً ..

وفى النهاية ستجد أن المكان ليس أكثر من نادٍ يضم أصحاب القلوب المعذبة التى أشقتهم الدنيا بمآسيها .

وستكشف فى النهاية أن معاناتك النفسية كانت شيئاً ضئيلاً للغاية ، عندما تستمع هنا إلى العديد من القصص المختلفة ، التى يرويها أصحاب تلك القلوب .

قلت وأنا أهز رأسى فى أسى :

ـ أرجوك .. إننى لا أريد من وجودى بهذا المكان سوى الاغتراب عن هذا العالم بكل ما فيه .. لا أريد أن أسمع أحداً أو أستمع إلى أحد .

ـ كما قلت فإن الخيار لك يا بنىّ .. لكن اسمح لى قبل أن تغادر مكتبى أن أكون ثقيلاً بعض الشىء ، وأخالف القاعدة التى وضعناها هنا .. اسمح لى أن أقص عليك قصتى :

« لقد كانت لى ابنة جميلة ، وزوجة وفرت لى كل أسباب النجاح والسعادة .

وكانت ابنتى وزوجتى هما كل حياتى .. فقد كنت رجل أعمال ناجحاً مرموقاً ، أملك الكثير من المال ، الذى كفل لى حياة رغدة سعيدة .

ولكن كل تلك الثروة التى كنت أملكها ، لم تكن تساوى بالنسبة لى لحظة سعادة واحدة أقضيها بجوار زوجتى وابنتى .

لقد كانا هما ثروتى الحقيقية ، والنعمة الغالية التى أنعم الله بها علىّ ..

وفى يوم مشئوم كنت عائداً من رحلة عمل بالخارج ، وكان اليوم يوافق ظهور نتيجة ابنتى فى كلية الطب .

ونجحت ابنتى .. نجحت بامتياز .. كادت تطير من السعادة وهى تخبر أمها بالنتيجة .

ومن فرط سعادتها لم تنتظر حتى أحضر إلى المنزل فتخبرنى ، وإنما أسرعت تقود سيارتها ، وتمضى لمقابلتى فى المطار ، حتى تكون أول من يخبرنى بنجاحها المتفوّق .. ورجت أمها أن ترافقها .

مضت الاثنتان وهما فى قمة السعادة التى أرادا أن يشركانى فيها لاستقبالى فى المطار .

لكن القدر أراد نهاية أخرى .. أراد أن يستبدل بالسعادة الألم وبالفرحة العذاب .

فتحطمت بهما السيارة فى حادث مروّع ، على مسافة قريبة من المطار .

وتوفيت على أثرها زوجتى .. وأصيبت الابنة بالشلل النصفى ، وبصدمة عصبية حادة ، أدت إلى انتحارها بعد ثلاثة أيام فقط من الحادث .. ولك أن تتصوَّر كيف كانت حالتى فى تلك الفترة .

لقد كنت مثلك منهاراً تماماً .. مستسلماً للفجيعة والحزن ..

هجرت عملى وبيتى ، وأصبحت أهيم على وجهى .. وفى إحدى الليالى فكرت فى الانتحار والرحيل عن هذا العالم ، الذى أصبح فى نظرى صورة مرادفة للجحيم .

ولكن الله كان رحيماً بى .. فلم يرد أن أحمل فى الدنيا عذاب فراق الزوجة والابنة ، وأعذب فى الآخرة بذنب

اليائس الكفور ، فساق إلىَّ فى هذه الليلة رجلاً صالحاً أشبه بالملاك الرحيم ، قابلنى وأنا أهيم على وجهى فى الطريق ، وقد أوشكت على فراق الدنيا بعد أن قررت الانتحار ، وطلب منى أن أقص عليه قصتى .

وكلما رويت له جزءاً من آلامى .. كان يروى لى الكثير من الآلام والمآسى التى عرفها ، وانتصر عليها بالإيمان .

وتبدلت حالتى .. وتبددت أحزانى على يد هذا الرجل .

وشعرت بشعاع من نور يتسلل إلى قلبى وينيره .

وشاءت إرادته (سبحانه وتعالى) أن يلهمنى فكرة هذه الدار فى تلك الليلة نفسها ..

فوضعت ثروتى وكل أموالى من أجل إنشائها ، هادفاً من وراء ذلك إلى جمع أصحاب القلوب المعذبة الذين نالتهم ضربة من ضربات القدر بمآسيها ؛ ليعرف كل منهم أن همومه وأحزانه تتضاءل بجانب أحزان وهموم الآخرين .

وأنه يمكن لأى شخص – مهما بلغ شقاؤه – أن

يكتشف جوانب أخرى للسعادة بعيداً عن تلك الدائرة الضيقة للحزن التى فرضها حول نفسه .

لقد جرَّبت ذلك بنفسى ، وشيئاً فشيئاً شعرت أن مأساتى الخاصة تتوارى وتشحب ، وأغرق فى مآسى الآخرين وأحزانهم .

ولا تعرف قدر السعادة التى أشعر بها حينما أجد أن بعض من جاءوا إلى هذه الدار قد فارقوها بعد أن تجدد لديهم الأمل فى الحياة ، وتبددت فيهم روح اليأس والاستسلام ، وأقبلوا على الحياة بقلوب وعقول جديدة تماماً .

وهذا التغيير الذى أراه فيهم هو الثمن الذى أجنيه من أولئك المعذبين فى مقابل إقامتهم فى هذه الدار .

لقد أردت أن أقص عليك هذه القصة فقط ؛ لكى تعرف أن الاغتراب والعزلة التى تنشدها لن تحل لك المشكلة ، بل بالعكس فإنها قد تزيد من قسوتها عليك .

وإذا أردت أن تتغلب على معاناتك التى تشعر بها داخل ذاتك ، فعليك أن تفتح عقلك وقلبك للآخرين ،

وتدعهم بدورهم يفتحون لك عقولهم وقلوبهم ؛ كى يكون كل منكم البلسم الشافى للآخر » .

– قلت :

– ربما قد تكون على حقّ فى كل ما قلته .. لكن صدقنى أننى لا أريد الآن إلا العزلة والابتعاد عن الآخرين.. فأذناى لم تعودا تطيقان السمع ، ولسانى لم يعد يطيق ترديد الكلمات .

قال :

– كما تحب .. عموماً أريد منك أن تعرف أن كل ما قدمته لنا من تفاصيل حول تجربتك الشخصية ، وحالتك النفسية ، يحفظ لدينا فى ملف سرّىّ لا يطلع عليه أحد قط .

بل يظل سرّاً لا يعرفه الآخرون ، وذلك حتى تكون لك حرية الاختيار فى أن تطلع الآخرين على ظروفك النفسية أو لا تطلعهم .

إن الأمر فى النهاية مرجعه إليك وللوسيلة التى تختارها ، ولن تجدنى حتى أنا فى يوم من الأيام أناقشك فى أية أشياء تدور حول ظروفك الخاصة ، وحالتك النفسية .

هذا هو مفتاح غرفتك .. غرفة رقم (٢٢) ، وهى فى ركن منعزل من الدار فيما أحسب أنك تفضل ..

فقط ستجد نفسك مضطرًا للاختلاط بالآخرين ساعة تناول الطعام .. فهذه قاعدة متفق عليها هنا .. لا طعام بالحجرات .

وفى النهاية.. لم يعد لدىَّ سوى أن أدعو الله لك ياولدى أن ينير قلبك ، ويجعلك أقوى من أحزانك وهمومك .

* * *



٧ – زائرة ملائكية ..

كان بالدار أربعة عشر نزيلاً .. عشرة رجال وأربع سيدات ، كل منهم جاء إلى هذا المكان حاملاً معه مأساته .

على أنى لم أحاول أن أعرف أى شىء عن تلك المآسى، مكتفياً بعزلتى التى سعدت بها .

ومرَّ علىَّ أسبوع كامل فى تلك الدار بعيداً عن الآخرين ، إلا فى تلك الساعات القليلة التى كنا نتناول فيها وجباتنا ، والتى كنت أكتفى منها غالباً بوجبة واحدة طوال ساعات النهار .

ثم أعود بعد ذلك لأنفرد بنفسى فى غرفتى الصغيرة .

وبعد فترة قليلة من الهدوء النسبى ، عاودتنى من جديد تلك الهواجس والاضطرابات النفسية العنيفة التى كانت تهاجمنى فى الماضى .

وحاولت المقاومة فى البداية ،لكن اضطراباتى النفسية كانت أقوى من مقاومتى .

وشيئاً فشيئاً بدأت أستسلم لحالة جديدة من الاضطراب

العصبي المصحوب بالصرع ، إلى أن شعرت بأننى أقترب تدريجيًا من حافة الجنون .

وللحقيقة لم يحاول أحد أن يتدخل فى حياتى ، ويدُسّ أنفه فى مشكلتى ، حتى صاحب الدار كان وفيًا لعهده معى ، وتركنى أختار لنفسى الأسلوب الذى أرتضيه للحياة فى تلك الدار .

كما أن عزلتى الطويلة فى غرفتى لم تتح لأحد أن يلحظ تلك التغيرات التى كانت تطرأ علىَّ عندما تهاجمنى تلك الحالة .

إلى أن جاء ذلك اليوم الذى كنت فيه منفرداً بنفسى كما هى العادة ، وبدأت تلك الهواجس المخيفة تهاجمنى .. حتى شعرت بصوتى يتحشرج ، وأنفاسى تكاد تختنق .. وظل العرق يتصبب منى غزيراً ، حتى أننى لم أنتبه لوقع خطواتها ، ودقات أصابعها ، وهى تطرق باب غرفتى .

ظلت تطرق الباب أكثر من مرة ، فيما كنت أعانى من تلك الحالة العصبية التى انتابتنى فجأة .. وازدادت غزارة العرق الذى أخذ يتصبب من جميع أجزاء جسدى .

وأخيراً .. تنبهت لتلك الطرقات على بابى ، فانتزعت نفسى مما أنا فيه ، وقمت لأفتح باب الغرفة .

ورأيتها .. رأيتها للمرة الأولى .. رأيت (عبير) .

كان العدد محدوداً فى تلك الدار كما ذكرت .. وكنا نجتمع معاً لنتناول الطعام حول مائدة واحدة .

لكنها كانت المرة الأولى التى أنتبه فيها إلى أن هذه السيدة الصغيرة ، ذات الجمال الملائكى ، تشاركنا فى دار المعذبين ، التى نعيش فيها .. وجاء صوتها إلى أذنى مكملاً لتلك الصورة الملائكية ، التى انطبعت فى خيالى عند رؤيتها .. فقد كان صوتاً هادئاً رخيماً ، وإن كانت تشوبه بعض النبرات الحزينة ، التى حاولت أن تخفيها وهى تبتدرنى :

— أنا آسفة لإزعاجك .. ولكنك نسيت نظارتك أمس ، وأنت تتناول طعام الغداء بجوارى ، وانتظرتُ أن تبحث عنها أو أسلمها لك عند حضورك لتناول الطعام اليوم .. لكنك لم تحاول البحث عنها ، ولم تأتِ لتشاركنا الطعام كما هو المعتاد .

لذلك قرّرت أن آتى بنفسى لأسلمها لك ، وإن كنت أرجو ألا يكون ذلك اقتحاماً غير مهذب منى ، لخلوتك بنفسك .

– أشكرك يا سيدتى .

– أدعى (عبير) .. أستاذ (مدحت) ، هل أكون متطفلة لو سألتك : لماذا لم تحضر لتشاركنا طعام الغداء اليوم ؟

– فى الواقع .... إننى .... إننى ..

– يبدو أن سؤالى كان تطفلاً بالفعل .. عموماً فأنت لست مضطرًا للإجابة عن سؤالى .. وأرجو المعذرة .

وهمّت بالانصراف.. ولكن يبدو أنها لاحظت حالة الإعياء التى كنت عليها ، وأنا أستند إلى باب الغرفة ، والعرق الذى يتصبب منى ، فعادت تقول :

– أستاذ (مدحت) ، أأنت مريض ؟

– كلاً إننى بخير .. إنها حالة تنتابنى من آن لآخر .

– إن الدكتور (منير) موجود بمكتبه الآن بالدار ، هل أستدعيه ؟

– لا .. لا داعى .. إننى بخير .. وأشكر ....

ولكن قبل أن أكمل جملتى ، كنت قد سقطت إلى الأرض فاقد الوعى .

* * *

أفقت من حالة الإغماء التى انتابتنى ؛ لأجد الطبيب واقفاً أمامى ومعه ذلك الرجل الطيب .. صاحب الدار ، وتلك السيدة الرقيقة .. سألنى الطبيب قائلاً :

– حمداً لله على سلامتك .

تساءلت ، وأنا أدير رأسى فيما حوالىّ مستغرباً :

– أين أنا ؟ وما الذى أتى بى إلى هنا ؟

– أنت فى حجرة الفحص الطبى .. لقد تم إسعافك من حالة مرضية عصبية ، نطلق عليها اللاوعى الإرادى .. منذ متى وأنت تتعرّض لهذه الحالة ؟

أجبت :

– لا أدرى .. لقد بدأت معى منذ عدة أشهر ، ولكنها بدأت تعاودنى من جديد منذ أيام قلائل ، بعد أن كنت قد شفيت منها .

– أنصت لى جيداً يا أستاذ (مدحت) .. إن اللاوعى

الإرادىّ بأسلوب مبسط ، حالة يفقد فيها المريض وعيه سيكولوجيًا دون ما سبب عضوى .. أى أن إرادتك هى التى تتجه إلى إحداث ذلك الشعور النفسى بفقدان الوعى حتى ينتهى بك الأمر إلى فقدان الوعى فعلا .. ولكنه يكون فى حالتك مصحوباً بنوع بسيط من الصرع ، نتيجة تضخيم الإحساس بهذا الشعور .

هل انتابتك هذه الحالة أكثر من مرة منذ دخولك إلى هذه الدار ؟

– نعم .

– ولماذا لم تخبرنا بذلك ؟

أجبته بعصبية ظاهرة :

– لم أجد أن هناك ما يستحق كل هذا الاهتمام .

– يجب إذن أن تشكر السيدة التى أسرعت باستدعائنا ؛ فالنوبة هذه المرة كانت خطيرة ومتقدمة .

إن اتجاه إرادتك نحو اللاوعى الإرادى يعبر عن محاولتك الهروب من الواقع الذى تحياه .. كما أنه ....

قاطعته وأنا أصرخ بحدة قائلاً :

– كفى .. كفى .. لا أريد تلك التشخيصات والتحليلات المرهقة .. لماذا لا تدعوننى لشأنى ؟ لماذا تقحمون أنفسكم دائماً فى حياتى ؟

أجابنى صاحب الدار بصوته الهادئ الحنون :

– يا سيد (مدحت) .. عليك أن تعرف أننا لا نتدخل فى حياتك ، إلا حينما تكون مهددة بالخطر .. ولا شىء غير ذلك .

أما إذا أردت الانتحار بهذه الصورة ، فعليك أن تختار مكاناً آخر غير هذه الدار ؛ لكى تحقق فيها مرادك ..

ربما أن وسائل العلاج لدينا غريبة ، وغير تقليدية ، ولكن فى النهاية فإن هذه الدار قد أنشئت لعلاج النفوس البشرية ، وهدايتها ، وليس من أجل تدميرها .

– إننى آسف ، فأنا متعب .. متعب للغاية .

وعدت للانخراط فى بكاء شديد ..

وأشارت السيدة للآخرين أن يبارحوا الغرفة ، ثم جلست إلى جانبى ، وهى تمسك بيدى بحنان قائلة :

– أستاذ (مدحت) .. إننى لا أعارض مطلقاً اختيارك

للأسلوب الذى تريد أن تعيش به هنا ، فأنا من أنصار حرية التجربة والاختيار ، وما دمت تستعذب الألم ، ولا تريد أن تشرك الآخرين فى أحزانك ، فذلك شأنك وحدك .

ولكنى أريد أن أسأل : لماذا تقتصر على اختيار واحد ؟ لماذا لا تجرّب إحدى الوسائل الأخرى ، ثم تختار فى النهاية ؟.

لماذا تصر على أن المعاناة والعزلة والهروب من الآخرين هى الأسلوب الوحيد للتعامل مع الواقع ؟

لماذا لا تحاول أن تجرّب ذلك الأسلوب الذى نتبعه هنا فى هذه الدار؟

أن تشارك الآخرين ، وتشركهم فيما تشعر به من ألم ومعاناة .. وبعد ذلك تقرّر أن تختار بنفسك الأسلوب الذى ترتضيه ، والذى تشعر بأنه أكثر راحة لنفسك .

فإذا أحسست أن التجاوب مع الآخرين سيخفف من بعض همومك ويقودك إلى الخلاص من ذلك العذاب النفسى الذى تشعر به ، تستمر فى التجربة حتى النهاية .

أما إذا شعرت بأنك تستريح لعزلتك وانطوائك عن الآخرين ، فلك أن تستمر فى اختيارك .. فقط حاول .. حاول أن تخوض التجربة .. وكما ترى هنا ، لا أحد يجبر الآخر على شىء ، ولن تجد من يجبرك على مخالفة اختيارك فى النهاية .

قلت وأنا أجفف دموعى من فوق وجهى ، وصوتى يشى بانكسار لم أستطع إخفاءه :

– إن محاولتى الإقدام على مخالطة الآخرين وممارسة ذلك الشعور الاجتماعى مرة أخرى .. الشعور بأهمية العلاقات الإنسانية .. أن أحتاج للآخرين ، ويحتاج إلى الآخرون .. قد يجعلنى أقبل على الدنيا من جديد .

وأنا لا أريد ذلك .. إننى أخشى ذلك الشعور .. أخاف الرغبة فى الإقبال على هذه الدنيا الخادعة .

فالفتاة التى أحببتها يوماً ما ، لم تكن سوى صورة مصغرة من هذه الدنيا .. مادية .. مخادعة .. تجعلك تقبلين عليها ، وتتوسّمين فيها الأمل والسعادة .. ترين الأشياء بصورة زائفة ، ولكنها جميلة، ثم لا تلبثين ، حين تبرز لك

أنياب الغدر ، أن تجدى أن كل ما قدمته لك من آمال عريضة وسعادة غامرة ، لم تكن سوى أوهام وخيالات .. غلاف براق ، يخفى تحته عذاب وشقاء لا حدود لهما ..

تفاجئين بأن خلف تلك الصورة الجميلة التى صوَّرتها لك صورة أخرى بشعة كريهة ، لم تكونى تتوقعينها ، أو تتخيلينها يوماً من الأيام .

قالت وقد ارتسمت ابتسامة أمل على قسماتها :

ـ هأنتذا قد بدأت تخطو خطواتك الأولى فى التجربة.. لقد تحدثت معى عن بعض آلامك .. وذلك يعنى أنك شعرت بالرغبة فى أن تتكلم إلى ، أو إلى أى شخص يمكنه أن يسمعك ، وذلك فى حد ذاته بداية طيبة .

ولم تكد تنهى حديثها حتى انتفضت واقفاً ، وأنا أقول بحدة وغضب :

ـ إن ما قلته لا يعنى سوى شىء واحد ، هو أن تكفوا عن مضايقتى ، وعن إصراركم على أن تجعلونى حقلاً لتجاربكم الإنسانية ، التى تريدون أن تطبقوها هنا . عليكِ أن تكفِّى عن محاولاتك السخيفة هذه لاستدراجى

إلى ذلك المختبر الاجتماعى ، الذى تريدين أن تقودينى إليه . لقد قلت من قبل : لا أريد أن أستمع إلى أحد ، أو أتحدث إلى أحد .

وإذا كنت تبحثين عن صديق يسلى وحدتك فلتبحثى عن سواى .

كنت فظًّا معها للغاية فى هذه الليلة ، حتى أننى لم أعبأ لحظة واحدة بذلك الشعور بالجرح ، والمهانة الذى ارتسم على وجهها ، وجعلها تسرع خارجة من الغرفة ، ودموعها على خديها .

وانصرفت إلى غرفتى ، وأنا فى حالة من الثورة العارمة ، بعد أن أغلقت الباب خلفها بعنف .

ولم أدرِ أكانت هذه الثورة عليها .. أم على نفسى ..

ولكن كل ما أعرفه هو أننى لم أذق طعم النوم فى هذه الليلة .. وعاودنى فى تلك الليلة ذلك الشعور الإنسانى بالأسف والندم لإيلام الآخرين ، برغم أننى قد تصوَّرت أنى قد نسيت هذا النوع من المشاعر ، وأنها قد تبددت بداخلى ، وأصبحت مقصورة فقط على نوعين هما : الحزن والكراهية .

وكانت هذه الليلة هى الليلة الأولى التى تتبدل فيها ذكرياتى الأليمة إلى مشاعر أخرى حسبتنى قد نسيتها .. مشاعر تأنيب الضمير ..

ذلك الضمير الذى أخذ يؤاخذنى على ما فعلته مع تلك المخلوقة الرقيقة التى جرحتها بقسوة ، لا لشىء سوى أنها حاولت أن تساعدنى على الخروج من محنتى ..

* * *



٨ ـ صداقة جديدة ..

وفى اليوم التالى .. ظللت أبحث عنها فى أثناء تناول الطعام ، فلم أجدها ، وسألت جارى عنها قائلاً :

ـ ألم تَرَ تلك السيدة التى تدعى ....

ـ تقصد (عبير) .. لا إنها لم تحضر اليوم لتشاركنا الطعام على غير عادتها .

وعافت نفسى أى رغبة فى تناول الطعام بدورى ، فتركت المائدة ، وقمت لأبحث عنها .

ظللت أبحث عنها فى غرفتها .. وفى أرجاء الدار دون جدوى .. وأخيراً لمحتها جالسة فى أحد أركان الحديقة ، الملحقة بالدار .. كانت ساهمة شاردة ، وكأنها تتطلع إلى الأفق البعيد .

وظللت أرقبها من بعيد ، وأنا متردد فى الذهاب إليها ، وقد تملكنى الخجل منها .

ثم لم ألبث أن استجمعت شجاعتى ، واقتربت منها قائلاً :

- أتسمحين لى بالجلوس إلى جوارك ؟

فأجابتنى دون أن يبدو عليها أى تعبير بالغضب ، أو التأنيب اللذين أستحقهما .

- بكل سرور يا أستاذ (مدحت) ..

ووجدتنى أفرك أصابعى ، كتلميذ خائب ، يبحث عن كلمات يقولها :

- إننى لا أعرف ماذا أقول عن تصرفى معك أمس؟ ولكنى آسف حقيقة .. آسف جداً .

- إنك لست بحاجة لأى نوع من أنواع الأسف يا أستاذ (مدحت).. فأنا مقدرة تماماً مشاعرك المضطربة المتضاربة .

كما أننى أعرف جيداً أنك لم تعنِ ما قلته أمس .. خاصة وأننى أرى فيك - برغم الظروف الصعبة التى تمر بها - صورة لسيد مهذب لا يمكن أن يفكر فى إيلام الآخرين .

- سيدتى .. إن كلماتك تزيد من ندمى .. ولكن ربما لو أخبرتك أننى قد أصبحت مستعداً لتنفيذ مطلبك ،

وبممارسة الأسلوب المتبع هنا أكون قد كفرت بعض الشىء عن خطئى ..

وتهلل وجهها قائلة :

- ربما أن الإقدام على اللجوء إلى التجربة ، واستخدام وسائل مختلفة للعلاج كنوع من الاعتذار لشخصى ، لا يعد هو الأسلوب الأمثل فى الاختيار .

ولكنى مع ذلك أرحب باستعدادك، ما دام أن اختيارك النهائى هو الذى سيحكم على التجربة .

- متى تريدين أن أبدأ ؟

- من غد لو أردت .

قلت :

- إننى أريد أن يقتصر الأمر أولاً على شخص واحد أرتاح إليه ، وأشعر بأنه يصلح لأن يكون هو الصديق ، الذى يمكن أن أبوح له بمكنونات نفسى ، وبعد ذلك أرى إن كنت أرغب فى مخالطة بقية نزلاء الدار والاندماج معهم أم لا .

قالت :

– هل حـــددت لنفسك صديقاً معيناً من بين نزلاء الدار ؟

– لا .. فكما ترين فإننى لم أخالط أحداً منهم من قبل مخالطة جدية ؛ لذلك سأترك لك أن تختارى لى هــذا الصديق ، وأنا أثق فى اختيارك .

– أستاذ (مدحت) ، أتوافق أن أكون أنا هــذا الصديق ؟

وابتسمت بمرارة قائلاً :

– إن آخر ما أتصوَّره هو أن أقص معاناتى على امرأة .

– لماذا لا تنسَ أننى امرأة وتعتبرنى صديقة فقط ؟.. مجرد صديقة تروى لهـا عن أحزانك وهمومك ، بغض النظر عن الجنس والنوع ولا تنسَ فى النهاية أنها تجربة .. يمكنك أن تقبل من خـلالها هذه الصداقة ، أو ترفضها .

– هل لى أن أسألك سؤالاً ؟.

– تفضل .

– لماذا كل هذا الاهتمام بى وبحالتى النفسية ؟

– لأننى جرَّبت من قبل طعم الوحدة والاغتراب ..

صدقنى إنها لا تعود علينا بشىء سوى المزيد من الشقاء ، والعذاب النفسى، إنك تخاف الآن من العلاقات الاجتماعية، والإقبال على الدنيا من جديد .

لكن ربما لو جربت طعم الدفء الإنسانى .. مجرَّد أن تسمع كلمة تشعرك بأن هناك من يشاركك همومك ، أو تواسى إنساناً بكلمة تشعر أنها قد خففت من آلامه .

ربما لو فعلت ذلك وأحسست بما سيعود عليـك من راحة وهناءة .. فقد تندم على ماضاع من عمرك من سنوات أضعتها فى عزلة ، واغتراب عن هذه الدنيـا ، التى يمكن أن نجعلها جميلة لو أردنا .

* * *



٩ ـ أحسست بالمشاركة الوجدانية ..

وتعددت لقاءاتنا ، ورويت لها الكثير عن حياتى وتجربتى .

رويت لها عن سنوات الجامعة .. وعن الأحلام الجميلة التى ظلت تداعب خيالى منذ أن كنت طالباً .

بل عدت معها بذاكرتى إلى ما هو أبعد من ذلك .. إلى سنوات الطفولة ، وذلك الأب المثالى الحنون ، صاحب المبادئ والقيم ، التى انتهت به إلى الفصل من الوظيفة ، وابتعاد القريب قبل الغريب عنا .. لكنه ظل شامخاً أبيًّا ، مصرًّا على مثله ومبادئه ، وكان يقول لى دائماً تلك الحكمة التى ظل يؤمن بها :

« عليك أن تتذكر أن تخسر العالم وتكسب نفسك ، أفضل لك بكثير من أن تكسب العالم ، وتخسر نفسك » .

لقد تشبعت بمثله وقيمه ومبادئه ، برغم أنه تعذب بها .. ولكنه كان منذ اللحظة الأولى واعياً لشرور هذا العالم .. صلباً أمام من غدروا به .. وكان دائم التفاؤل فى أحلك

لحظات اليأس ، لهذا كان قويًّا .. قويًّا فوق آلامه .. صامداً أمام من غدروا به وحاربوه .

أما أنا ، فقد أخذت هذه المثل والمبادئ منه ، مكللاً بإكليل البراءة ، أو قولى السذاجة ، لو شئت ، فكلاهما يؤديان نفس المعنى فى النهاية .

لم أكن أملك وعيه وخبرته بشرور الحياة .. ولم تكن لدىَّ قوته وصلابته أمام من غدروا بى .. والأهم من ذلك لم يكن لدىَّ تفاؤله فى مواجهة صدمات القدر .

ولهذا انهرت عند أول صدمة عاطفية واجهتها فى حياتى .. لم أحتط لحقد الصديق ، وغدر الحبيبة .

ضعفت عند أول مواجهة بين مثلى وأحاسيسى ، وبين أشياء كثيراً ما تحدث فى هذه الدنيا ، ولا تؤثر فى الآخرين ، كالخيانة والجحود .. نعم .. إننى أعترف بأننى لم أكن أقوى من أزمتى .

لكن صدقينى .. إننى لا أملك حيال نفسى شيئاً .. هناك جرح فى نفسى لا يريد أن يندمل .. ولا أعرف كيف أشفى منه ؟

كانت تستمع إلىَّ منصتة، وعلى وجهها ذلك التجاوب الإنسانى، مع مشاعر الألم التى كنت أعبر بها عن صدمتى، ليلة زفاف (كريمة) من (صلاح) .

قالت لى :

– الشىء الغريب أن ظروفنا تكاد تكون واحدة ..

فلست وحدك ذلك الإنسان الحساس، الممتلىء بمشاعر النبل والخير، الذى اصطدمت مشاعره بصدمة الخيانة .

لقد تزوَّجت يوماً ما رجلاً كان هو كل حياتى، وتوَّج زواجنا بابننا الصغير، الذى كان بالنسبة لى جزءاً لا يتجزأ من جسدى، وعقلى وروحى .

كنت أعتبر ذلك المنزل الذى يضمنا جزءاً من الجنة، أودعه الله فى الأرض .

لم أبخل بجهد أو عزيمة، من أجل الحفاظ على تلك الأسرة الصغيرة، التى كانت كل ما أمتلكه، وأعشقه على هذه الأرض .

لقد كانت هذه الأسرة الصغيرة بالنسبة لى المستقبل، والآمال العريضة التى ظللت أرسمها كل يوم .

ولكن فجأة تبدَّل كل شىء .. ضاع المستقبل، والآمال العريضة تبدَّدت من بين يدى .

كنت أجهز طعام الغذاء لزوجى وابنى، إلى أن يعود كل منهما من عمله ومدرسته .

جهزت الطعام المفضَّل لدى زوجى .. وأعددت (تورتة) الشيكولاتة التى يحبها ولدى الصغير (عمر) .

ولكنى ظللت أنتظر دون أن يحضر ابنى من مدرسته، وزوجى من عمله، ولم يتناول أحدهما هذا الطعام الذى أعددته أبداً ..

ونظرت إلى عينيها فوجدتها قد اغرورقت بالدموع، التى سال بعضها على وجنتيها، فقدمت لها منديلى لتمسح دمعها قائلاً :

– مدام (عبير) .. إذا كان ذلك الحديث يؤلمك .. فأرجو أن تتوقفى عن تكملته .

ومسحت دموعها بمنديلى، وهى تغتصب ابتسامة كان فيها من معانى المرارة أكثر مما فيها من معانى الابتسام قائلة :

– أنسيت أن ذلك الحديث هو جزء من تجربتنا المشتركة فى علاج أرواحنا البائسة ؟

واستمرت فى رواية قصتها قائلة :

– وبعد ذلك عرفت أن زوجى كان قد تزوج من فتاة أمريكية فى الخفاء ، وهاجر معها إلى الولايات المتحدة بعد أن أخذ معه ابننا الوحيد ..

كانت الطائرة تقلع بهما فى نفس الوقت الذى كنت أجلس فيه بجوار مائدة الطعام فى انتظارهما ..

نعم .. لقد أعد زوجى كل شىء بعناية .. كان يعد لذلك منذ وقت طويل ، دون أن أدرى .

الزواج .. أوراق السفر .. أوراق المدرسة التى سحبها فى نفس اليوم ، مدخراته فى البنك .. الأشياء الثمينة التى كان يحرص عليها ، والتى أخذها من المنزل قبل أن يغادره دون أن أدرى .

لقد رتب كل شىء بدقة .. دقة محكمة .. وكان آخر ما أعده من ترتيبات هى تلك الورقة التى أرسلها لى زوجى مع أحد جنود الشرطة .. ورقة الطلاق .

هكذا بدون أى مقدمات .. بدون أن أرتكب معه خطأ واحداً فى حياتى .. لم يكن لى هم سوى إرضائه ، ورعاية ابنه ، والسهر على راحتهما .. عشت معه زوجة وفية مخلصة .. تحملت كل نزواته وهفواته .. تحملت من أجل ابنى ، ومن أجل حبى له .

أطاح بكل ذلك فجأة ... خرّب حياتى .. وحرمنى ولدى الوحيد ، ومن دنياى التى لم أكن أعرف لى دنيا أخرى سواها .

حاولت .. وبذلت الكثير للبحث عن ابنى واسترداده .. سافرت بنفسى إلى الولايات المتحدة ، متنقلة من ولاية إلى أخرى ، سعياً وراء البحث عنهما ، بعد أن أنفقت كل ما لدىّ من مال دون جدوى .. وهكذا ضاع كل شىء ..

وهكذا ترى أن الخيانة أمر غير مقصور على المرأة وحدها كما تصوّرت .. وأن الشقاء لم يختصك بالنصيب الأكبر كما تخيلت ..

الفارق الوحيد بينى وبينك ، هو أننى فى النهاية لم أستسلم للفجيعة ، وقرّرت أن أكون أقوى من آلامى .

فعدت إلى عملى مهندسة بإحدى الشركات الهندسية ، ولم أدع أحـداً يشعر بمأساتى ، التى ظللت أقاومها ، وأهرب منها بالتفانى فى العمل ، وبالإصرار والعزيمة حتى عدت للوقوف على قدمىَّ من جديد .

– إذن لماذا جئت إلى هذا المكان ؟

– لأننى كنت أحتاج إليه .. فأن تكون صلباً وقوياً بطبيعتك شىء ، وأن تتظاهر بالقوة والصلابة ، وتحاول بنها داخل نفسك شىء آخر .. لقد كنت أعيش يومى فى تحد دائم مع ذاتى .

كنت أحاول أن أثبت لنفسى وللآخرين من حولى أننى قوية ، وأن لدىَّ القـدرة على اجتياز المحنـة التى ألمت بى .

ولكن تلك المقاومة للأحزان فى حد ذاتها نوع من المعاناة ، وأحياناً كانت تخوننى قوتى ، فأشعر أننى أريد أن أصرخ ، وأن أبكى ، وأن أفرغ شحنة الألم ، ومرارة الجرح بداخلى فى صرخات ودموع .

لكننى كنت أعرف أننى لو أسلمت نفسى للانهيار ،

فسأظل مستسلمة له إلى الأبد ، ولن أستعيد قدرتى من جديد على المقاومة .

ولذلك جئت إلى هنـا .. جئت لأهرب من معاناتى اليومية .. وسط بشر لا يختلفون كثيراً عنى فى ظروفهم ، ولا أحتاج للتظاهر بالصلابة أمامهم .

جئت لأجرب نوعاً آخر من التصدى لجراح النفس بالمشاركة فى مآسى الآخرين .

ربما كان التحاقى بهذه الدار فى البـداية محاولة منى للهروب ، كما فعلت أنت ، لكنهـا تحولت فيما بعد إلى مشاركة وجدانية ، تضاءل فيها كل شىء بالنسبة لى ، إلا الحب والرغبة فى إسعاد الآخرين .

ولذلك أردتك أن تجرِّب نفس التحوُّل الذى حدث لى هنا .

أن تغرق فى هموم غيرك ، وتفكر فى كيفية إسعادهم ، وكيفية شحذ عزيمتهم ، للتغلب على آلامهم .

وبذلك ستجد نفسك شيئاً فشيئاً تنسى محنتـك ، وتعرف أن كلمات التفاؤل والأمل التى تقدمها لهم أحق بك

أن تقدمها لنفسك ، وتستعيد بها قدرتك من جديد على الوقوف على قدميك ، وشق طريقك فى هذه الدنيا .

فالدنيا لا يمكن أن تكون كلها سعادة وهناءة ، كما أنها لا يمكن أن تكون كلها عذاباً وشقاء .

وكانت بالفعل تجربة ناجحة ، وجدت نفسى أندمج فيها تدريجياً ، وأغوص فيها بكل أحاسيسى .

ومرَّت الأيام ، وتعددت لقاءاتنا .

ولم تعد هذه اللقاءات تقتصر عليها وحدها ، بل اتسعت لتشمل أشخاصاً آخرين من بقية نزلاء الدار .

وأحسست بتلك المشاركة الوجدانية ، التى حدثتنى عنها (عبير) من قبل .. شعرت بالتعاطف والتقارب مع أولئك البؤساء ، الذين أذاقتهم الحياة مرارتها .

أدركت مدى ضآلة محنتى وتفاهتها بجوار تلك القصص التى سمعتها هنا ، وشعرت أننى أكاد أنسى صدمتى تدريجيًّا .

كنت أبحث دائماً عن وسيلة لإسعادهم، وأنتقى كلمات العطف والتفاؤل ، التى تخفف من أحزانهم .

وكم كانت سعادتى عندما كنا نتشارك جميعاً فى الضحك والابتسام ، والألعاب المسلية .

واختفت تلك النوبات التى كانت تداهمنى بين الحين والآخر .. لقد كان حقًّا أسلوباً جديداً فى العلاج النفسى ، جديراً بالتجربة .. فالإحساس بآلام الآخرين ، والرغبة فى إسعادهم ، تداوى جراح النفس وتشفيها ..

* * *



١٠ ـ عبرت بحار اليأس ..

وفى أحد الأيام ، وبينما أنا جالس معها قلت لها :

ـ لا أدرى فى الحقيقة كيف أشكرك ، فبفضلك ، وبفضل ذلك الرجل الطيب ، صاحب الدار ، أشعر أننى قد أصبحت مخلوقاً آخر .. لقد ألقيت وراء ظهرى ذكرياتى المرَّة ، وأقبلت على الحياة من جديد ، بحبٍّ وود وصفاء .

(عبير) .. أتسمحين لى بأن أنطق اسمك مجرداً ؟

ـ لقد كنت أتمنى أن تفعل .

ـ (عبير) .. إننى لن أسامح نفسى على إيلامى وإهانتى لك يوم طلبت منى أن أخوض تلك التجربة الإنسانية .

فلولا أنت لظللت حتى اليوم غارقاً فى بحار اليأس ، التى ألقيت بنفسى فيها ..

ـ ليس المهم الآن هو الشكر ، أو طلب الغفران .. إنما المهم هو أن تسأل نفسك الآن : وماذا بعد ؟

ـ ماذا بعد ؟ لا أدرى ماذا تقصدين ؟

ـ (مدحت) .. لقد شفيت .. عبرت بحار اليأس ، التى ألقيت بنفسك فيها ، ووصلت إلى شاطئ الأمان .

حان الوقت لمغادرة هذه الدار .. وعليك أن تعود لعملك ، وحياتك الطبيعية من جديد .

ـ ماذا تقولين ؟ إننى لن أفارق هذه الدار .

ـ ليس معقولاً أن تظل فيها بقية العمر .. وإلا فما فائدة العلاج ، والتحوُّل الناجح ، الذى حدث لك هنا ؟

هذه الدار مخصصة لأصحاب الأزمات ، والأمراض النفسية ، وأنت تغلبت على أزمتك ، واستعدت توازنك النفسى .. أصبحت إنساناً طبيعيًّا بكل المقاييس .. فما جدوى استمرارك فى هذه الدار ؟

ـ وأنت .. أنت الأخرى شفيت من محنتك ، فماذا يدعوك إلى البقاء والاستمرار هنا ؟

ـ أليس من الجائز أن تكون مخطئاً ؟

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ (مدحت) .. إننى أشعر بالتصالح مع نفسى ؛

لأننى هنا وسط هؤلاء الذين قابلتهم هنا .. ولكن حين أخرج بعيداً عن هذه الدار سأفقد هذا التوازن والاستقرار .

– وهذا هو نفس ما أشعر به داخل نفسى ..

– لا .. لا تحاول أن تخدع نفسك ، وتخدعنى .. لقد عدت (مدحت) السابق، بل أكثر من ذلك .. لقد أصبحت أكثر فهماً للحياة وتقلباتها ،وأكثر قدرة وصلابة على الصمود أمام مصاعبها .

– لا تحاولى أنت أن تقدمى لى كلمات كلها تفاؤل ، وتشجيع ، فى حين أنك لاتعملين بها .. لقد قُلْتِ لى من قبل : إن لديك القدرة على الصمود والصلابة مهما كانت العقبات التى تعترضك .. والآن تخافين الخروج من هذه الدار ؛ لأنك تشعرين بأنك ستفقدين فى الخارج توازنك النفسى ..

– لقد قلت لك إننى حاولت أن أكون قوية ، وتظاهرت بالصلابة ، وكان ذلك فى ذاته نوعاً من المعاناة، وإننى جئت إلى هنا هرباً من هذه المعاناة .

ولكن يوم أن أشعر مثلك بأننى قد تجاوزت محنتى حقيقة لا تظاهراً .. وأنى استعدت توازنى النفسى كإنسانة طبيعية .. فتأكد أننى لن أستمر يوماً واحداً فى هذه الدار .

أما أنت فقد أصبحت إنساناً طبيعيًّا ، ولديك كل مقومات النجاح ، فلا داعى لبقائك هنا ..

وانفعلت قائلاً :

– ومن الذى قال لك إننى عدت إنساناً طبيعيًّا متوازناً ؟ أأنت محللة نفسية ؟ إذا كان وجودى هنا يضايقك يمكننا أن نتوقف عن هذه اللقاءات ، التى نعقدها معاً ؟

وانتصبت واقفة وهى تقول فى غضب :

– هذه المرة لن أسامحك ؛ لأننى على يقين أنك قد شفيت ، ولم يعد لديك عذر ؛ لكى تجرح الآخرين .

همّت بالانصراف ، ولكنى أمسكت يدها قائلاً :

– (عبير) .. أنا آسف .. آسف جدًّا .. وأرجو أن تسامحينى ؛ فأعصابى متوترة .. فهناك أشياء كثيرة

أصبحت تربطنى بهذه الدار ، بنفس القدر الذى أجد فيه أشياء كثيرة تبعدنى عما بخارجها .

أيمكن أن نؤجل هذه المناقشة إلى غد ؟

– كما تحب .. وأرجو أن تفكر فيما قلته جيداً .

وقبل أن تنصرف عدت لأسألها من جديد ... ربما للتأكد من أنها ستأتى ، وأنها قد غفرت لى انفعالى .

– ستأتين .. أليس كذلك ؟

وابتسمت دون أن تجيبنى .. كانت ابتسامتها خلابة ، رقص لها قلبى فرحاً .. وتأكد لدىَّ ذلك الإحساس الذى شعرت به نحوها من قبل.. نعم إن ما يربطنى بهذه المخلوقة ليس بمجرد الصداقة ، والمشاركة الوجدانية ، والإحساس بالامتنان لما قدمته لى من مصالحة مع نفسى ، وإقبال على الحياة .

لا .. إننى أحبها .. نعم أحبها .. لن أخدع نفسى خوفاً من تجربتى الماضية .. لن أهرب منها خشية ذكرياتى مع (كريمة) .. فهذه المرة لم يخدعنى قلبى ،ولست أعيش صورة وهمية نسجتها من خيالى،لقد مضى زمان الوهم ..

وأنا الآن أعيش الحقيقة .. فهـذه الإنسانة لا يمكن أن تخدع ، ولا يمكن أن تخون .

إنها شىء مختلف تماماً عن (كريمة) .. نعم.. لقد كانت (كريمة) هى الوهم ، و (عبير) هى الحقيقة .

ولكن ترى لو بحت لها بهـذه الحقيقة ، هل سأجـد عندها نفس المشاعر التى أحس بها نحوها الآن ؟!!

* * *



١١ – تصارحنا بالحب ..

والتقينا فى اليوم التالى ، حيث بادرتنى بالسؤال قائلة :

– هل فكرت فيما قلته لك أمس ؟

– نعم .

– وما الذى قررته ؟

– لا أستطيع مغادرة هذه الدار .

– لقد خاب أملى فيك .. فقد كنت بالنسبة لى تجربة راهنت على نجاحها .

– وقد نجحت بالفعل .

– نجاح ضئيل .. لقد قطعت نصف الطريق فقط نحو النجاح الحقيقى .

– وهل أنا بالنسبة لك مجرد تجربة ، راهنت على نجاحها فقط ؟

وتجاهلت سؤالى قائلة :

– (مدحت) ، أتقول لى : ما الذى يحول بينك وبين العودة لعملك وحياتك الطبيعية صراحة ؟

– (عبير).. إنك لا تفهمين ، لقد تغلبت على معاناتى النفسية نعم .. لكن ليس معنى ذلك أننى سأستطيع أن أستأنف حياتى كما كانت من قبل .. لن أستطيع أن أعود إلى ممارسة عملى ، الذى أحبه مثلا كما كنت أتمنى ممارسته فى الماضى ..

– وما الذى يمنع ؟

– أنت تعرفين أننى كنت أعمل محامياً .. ولن يوافق أحد على أن أعمل فى مكتبه بعد دخولى إلى المصحة النفسية .. لن يأتمننى أحد على قضاياه ..

– لقد أخبرتنى من قبل أنك تمتلك شقة صغيرة ، تقيم فيها وحدك ، فماذا يمنع من أن تتخذ منها مكتباً لنفسك ، وتستقل بعملك ؟

– هناك الكثير من الموانع ؛ فالشىء الذى سيرفض من أجله أصحاب المكاتب أن أعمل معهم سيكون هو نفس الشىء الذى سيرفض من أجله أصحاب القضايا أن يسلموا لى قضاياهم .. فالكثيرون يعلمون قصتى مع (كريمة) ، وبما انتهت إليه هذه القصة .. وأيضاً أنا

نفسى أشعر بأننى لم أعد قادراً على هذا العمل .. فالمحاماة تحتاج إلى الممارسة .. والممارسة لم تتوافر لى منذ فترة طويلة.

– إن هذه الأعذار واهية .. فما دمت تحب مهنتك فلابد أنك ستنجح فيها ، والناس سترى أنك قد شفيت حينما تقف لتترافع ، وتطرح مذكراتك أمام القاضى فى ساحة المحكمة .

ويكفيك قضية واحدة تكسبها ؛ لكى تكسب ثقتهم، وإقبالهم عليك .. هناك أيضاً (الدكتوراه) التى حدثتنى عنها من قبل .. هل نسيت أحلامك حول تحضير (الدكتوراه) ؟

وابتسمت وأنا أنظر إلى وجهها قائلاً :

– أتعرفين أنك على نقيض (كريمة) تماماً ؟ كيف لم أفطن لهذه الحقيقة من قبل ؟ حقيقة إن الارتباط بين اثنين لا يتحدثان لغة واحدة محكوم عليه بالفشل حتماً .

نعم .. لقد كنت أنا و (كريمة) نتحدث بلغة مختلفة .. أما معك أنت فإننا نتحدث لغة واحدة .

وأمسكت بيدى ، وهى تقول لى بإصرار :

– (مدحت) ، ستكون لغتنا واحدة بالفعل ، حينما

تخرج من هذه الدار لتجابه الحياة ، وتبدأ فيها رحلة نجاحك.

– إنها ستكون مرحلة صعبة جديدة فى حياتى ..

– ولكنك ستجتازها ، وستنجح فيها ، كما نجحت هنا من قبل ، فأنا أومن بك ، وبقدرتك على النجاح .

– حقًا يا (عبير) ؟!!

– ألست متأكداً من ذلك ؟

– لقد استمددت من نظرات عينيك ، ومن ذلك الإيمان الذى ينبعث منهما قدرتى على الشفاء ، وسوف أستمد منها قدرتى على النجاح .

– إذن غداً تودع تلك الدار .. وتعود من جديد لشقتك ومكتبك ،وتبدأ فى ممارسة مهنتك ، بتلك العزيمة، والثقة ، والإصرار التى أراها فى عينيك الآن .

– وأنت ؟

– لا تقلق من جهتى .. إننى سأبقى من أجل هؤلاء ، ومن أجل القادمين إلى دار القلوب المعذبة .. وربما ألحق بك خارج هذه الدار قريباً .

– ولكنك لا تدركين أنك لم تعودى بالنسبة لى تلك

الصديقة التى ساعدتنى على النسيان ، وأعادت لى الثقة .. إنك قد أصبحت بالنسبة لى ....

– أعرف .. أعرف ..

– ماذا تعرفين ؟

– أعرف أنك تحبنى .. لقد فهمت ذلك من نظرات عينيك قبل أن ينطقه لسانك ..

– ومع ذلك لم تحاولى على الأقل أن تجيبى عن تلك النظرات بأى رد يريح استفسارها الحائر .

أريد أن أعرف ردك قبل أن أغادر هـذه الدار .. أريـد منك أن تخبرينى عما إذا كنت محقـًا ، إذ تصوَّرت أنك تبادلينى نفس شعورى .

– ربما أن ما تظنه حبـًا ليس له من تفسير سوى تلك الظروف التى تعارفنا فيها ، وجمعت بيننا فى هذه الدار .

إن التجاوب الإنسانى الذى حدث بيننا نتيجة ظروفنا النفسية المشتركة هو الذى أحدث تلك الأحاسيس الخادعة بالحب ، وهذا شىء يحـدث غالباً بين من يمرون بنفس ظروفنا .

ولكن بمجرد أن تعود للمشاركة فى الحياة الاجتماعيـة من جديد ، وتبدأ فى ممارسة عملك وحياتك ، ستجد أنك كنت مخطئاً فى ذلك الشعور الوهمى ، الذى سيكون مصيره حتماً إلى النسيان .

داهمنى خوف مفاجىء ، فصرخت :

– لا يا (عبير) .. أنت مخطئة هذه المرة .

فلم تكن المشـاركة فى الأحـزان ، والتجاوب مع الآلام ، هى الدافع لهذا الشعور بداخلى .

لقد أحسست بهـذا الشعور منذ لقائنـا الأول ، برغم ما انتهى إليه هذا اللقاء .

أحسست أن هناك شيئاً خفيـًا يشدنى إليك ، ويدفعنى إلى حبك ظننته تعاطفاً منى تجاه تلك النظرة الحزينـة ، التى رأيتها فى عينيك ، وظننته مرة أخرى إشفاقاً على تجربتك الأليمـة ، وظننته مرة ثالثة تجاوباً مع مشاركتك الحنون لتجربتى القاسية .

ولكننى اكتشفت فى النهـاية أن كل تلك الظنـون لم تكن حقيقية .

فقد كان ذلك الشيء الذى يجذبنى إليك اقوى من تلك المشاعر ، وأعظم ، فقط كنت أحاول أن أخفى تسميته الحقيقية ، ولا أعترف بها حتى لنفسى ؛ بسبب تلك العقدة التى خلفتها تجربتى مع المرأة ..

ولكننى الآن وقد شفيت من هذه العقدة المريرة ، أصبح لدى الشجاعة الكاملة أن أسميه باسمه الحقيقى .. فليس له سوى اسم واحد ، هو الحبّ .. فإن كنت تبادلينى نفس مشاعر الحب ، التى أكنّها لك ، كما تحدثنى نفسى فتأكدى أننى سأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض لو قبلت الزواج منى .. وأن نجعل من هذا الزواج الماء الذى نغسل به كل جراح الماضى .

ولم أكد أنهى حديثى حتى رأيت لحظتها تلك الدمعة التى حاولت أن تخفيها ، فلم تفلح .. رأيتها وهى تتساقط فوق وجنتيها .

تكلمت وقد أخذ منى الإشفاق كل مأخذ :

– (عبير) .. إنك تعرفين أننى لا أطيق رؤية دموعك. إذا كان الموقف الذى أضعك فيه الآن يشق عليك ..

فلتنسىْ ما قلت .. بل اعتبرى أننى لم أقل لك شيئاً ..

وإذا كنتِ تخشين أن يكون ردك علىّ بالرفض بمثابة صدمة جديدة قد لا تحتملها نفسى .. فتأكدى أن ذلك لن يحدث ، وأن ذلك لن يحول دون حبى وتقديرى لك ..

قالت وهى تغتصب بسمة إلى شفتيها :

– (مدحت) .. إن دموعى هى دموع السعادة .. فقد كنت أظن أن حبك لى وهم فرضته الظروف .. ومن أعماق كنت أتمنى أن يكون حقيقيًا .. حقيقيًا بنفس القدر الذى أحببتك به .. نعم يا (مدحت) .. إننى أبادلك نفس الشعور وأكثر .

وتراقص قلبى بين ضلوعى فرحاً بهذا الاعتراف الذى طالما تمنيت أن أسمعه ..

فيما أكملت (عبير) كلماتها قائلة :

– هل تتذكر حينما قلت لك : إننى عشت طوال الفترة التى أعقبت رحيل زوجى وابنى عنى وأنا أتظاهر بالقوة ، فى حين كانت جراح الضعف والألم تمزقنى من الداخل ؟ أتظاهر بالسعادة وأنا أخفى مرارة الحزن بين ضلوعى .

لقد تبدّل كل ذلك معك.. فمنذ أن عرفتك أصبحت أشعر بقوة حقيقية ، استمددتها من وجودك معى بهذه الدار .

وعدت أشعر بطعم السعادة من جديد ، وهى تتجدد فى كل مرة نلتقى فيها معاً ، ونجلس لنتحدث معاً ..

لقد كنت أعتقد من قبل أن ذلك الرجل الذى تزوجته هو الحب الوحيد فى حياتى .. ولكننى بعد أن عرفتك تأكدت أننى لم أكن أعرف معنى الحب من قبل .

وهكذا نجد أننا متشابهان فى كل شىء .. فى الأحزان وفى الأوهام ، وفى المشاعر.

قلت وأنا أكاد أطير من فرط السعادة :

– مهما حاولت أن أقول لك فلن أستطيع أن أصف مدى سعادتى بما صرحت لى به الآن .. وما دام كلانا يكن للآخر نفس المشاعر فلنتوّج هذا الحبّ بالزواج ..

ابتسمت قائلة :

– إننى أوافق بشرط واحد ، هو أن تثبت لى قوتك ومقدرتك على النجاح فى عملك ، وفى حياتك .. أن تكون

محامياً مرموقاً يدافع عن العدالة ، كما تحس بها داخل نفسك .

إن النجاح المادى لا يهمنى كثيراً .. ولكن نجاحك المهنى والأدبى ، هو فى المقام الأول .. فالعمل فى حد ذاته قيمة لابد أن تحرص عليها .. وشرف المهنة قيمة أخرى ، يجب عليك ألا تتنازل عنها مهما كانت المغريات ..

قلت والسعادة لا تكاد تسعنى :

– كلما عرفتك أكثر ازداد احترامى لك ، وإعجابى بك ، ومع ذلك فأنا لا أرى مانعاً من أن نتزوج أولاً ، ونبدأ معاً مشوار النجاح .

– وهل تحرمنى أن أكون بالنسبة لك هدفاً غالياً تعمل من أجله ؟ إن الحبّ ليس مجرد كلمات تتردد على الألسنة.. الحبُّ الحقيقى هدف سام نسعى إليه ، ونعمل من أجله .

وعليك أن تثبت لى أننى سأكون هذا الهدف ، الذى ستعمل وتنجح من أجله .

– لقد أصبح ذلك الهدف هو كل حياتى الآن .. وأعدك بأننى سأبذل كل ما لدىَّ من جهد ومقدرة من أجل أن أكون ذلك الرجل الذى يليق بك .

وتنهدت بارتياح قائلة :

– حسناً .. إذن من الغد تودِّع الدار .

– هل يمكن أن أحضر لزيارتك هنا بين الحين والآخر ؟.

– عندما تحرز أول نجاح ، وتكسب قضيتك الأولى ..

– إذن فتلك هى الأمسية الأخيرة التى نقضيها معاً فى هذه الدار .

قالت وقد بدأت تشرد من جديد :

– من يدرى كم من الأمسيات الجميلة سنقضيها معاً فى المستقبل ؟

– سألقاك غداً قبل أن أغادر هذه الدار .

– أفضل أن نفترق هنا .. فأنا لا أطيق لحظات الوداع .

وأمسكت بيدى وهى تضغط عليها برفق وحنان ، قائلة وعلى وجهها ملامح الحزن والأسى :

– وداعاً يا حبيبى .

– بل لنقل إلى اللقاء يا حبيبتى .

وضغطت على يدى بقوة ، وهى تحاول أن تخفى دموعها قائلة :

– نعم .. نعم .. لابد أن نلتقى من جديد ..

* * *



١٢ – وعدت الى المحاماه ..

وودعت الدار التى جئتها حاملاً معى جراحى وعذابى بعد أن بدلت بها بسمة الأمل ، وقوة العزيمة ، التى أودعتها بداخلى تلك المخلوقة الملائكية .

وعدت إلى مهنة المحاماة .. مهنتى التى أحبها .. ولم تكن عودتى سهلة .. فقد صادفتنى عقبات ، وصعوبات متوقعة ..

وظللت شهوراً طويلة فى انتظار القضايا .. ولكنها لم تأت ؛ فقد كان الجميع ينظرون إلىَّ على أنى ذلك المحامى المريض بمرض نفسى ، والذى دخل المصحة للعلاج .

حتى من كان لا يعرف قصتى مع المرض .. كان يتخوَّف من ذلك المحامى المغمور ، الذى لم يسمع به أحد .

لقد رفض بعضهم حتى أن أتطوَّع للترافع فى بعض قضاياه .

ولكننى لم أيئس .. كافحت .. وثابرت ، ولم أضع وقتى سدى ؛ فقد سجلت اسمى من جديد فى الدراسات

العليا بالجامعة ، للدراسة (الدكتوراه) وحصرت همى فى الدراسة ، وإعداد الرسالة .

وكانت البداية الحقيقية بالنسبة للعمل عندما تقابلت بالصدفة مع أستاذى القديم .. الأستاذ (فوزى) .. الذى عرف منى أننى فتحت مكتباً ، وبدأت أشق طريقى من جديد فى مهنة المحاماة ..

ولم يبخل علىَّ الأستاذ الكريم بتحويل بعض القضايا الصغيرة من مكتبه إلى مكتبى ، متعللا بضيق الوقت ، وزحمة العمل ؛ حتى لا يجعلنى أشعر بأنه يمن علىَّ بهذه القضايا .

وبدأت أعمل ، وأتنقل بين المحاكم .. كنت أشعر كأننى أبدأ من جديد ، ولكننى لم أتخاذل .

لقد كان كل ما أحتاج إليه هى قضية كبيرة .. تشد الانتباه ، وتحمل لى الشهرة المطلوبة ؛ لتثبيت أقدامى .

نعم .. إن القضايا التى كان يرسل لى بها الأستاذ (فوزى) كانت تدر على دخلا لا بأس به .

لكن لم تكن هذه هى القضايا المطلوبة .. فقد كانت

كلها من نوع الجنح البسيطة .. كما أن المال لم يكن هو هدفى ؛ لقد كنت أبحث عن إحدى تلك القضايا الكبيرة التى تهتز لها المحاكم ، وتصنع شهرة المحامى .

وجاءتنى هذه القضية أخيراً .

جاءتنى عن طريق (إبراهيم) ابن خالتى .

كانت جريمة قتل ، اتهم فيها أحد أصدقائه ظلماً ، برغم ثبوت الأدلة ، وتوافرها ضده .

ودرست القضية بعناية ، وكدت أن أرفضها ... فلم يكن أى محام ناجح على استعداد للتصدّى لقضية صعبة على هذا النحو ، تحاصر الأدلة فيها المتهم من كل جانب ، وتجعل مهمة النيابة غاية فى السهولة ، ولا تحتاج إلى الكثير من المجهود ، لإقناع القاضى بالعقوبة ..

هذا فضلا عن أن ضميرى لم يسترح لبراءة هذا المتهم فى البداية من خلال دراستى للقضية .

على أن شيئاً ما فى كلام الرجل ، وفى عيونه وهو يؤكد لى براءته من تلك الجريمة ، وعدم معرفته بكيفية وجود كل هذه الدلائل ، التى تشير إلى اقترافه ذلك الجرم ، جعلنى أقبل قضيته .

وبدأت أفنّد هذه الأدلة واحداً بعد الآخر ، وأستدعى شهود الإثبات والنفى .

أخذت منى القضية شهوراً طويلة ومجهودات مضنية .. إلى أن نجحت .. نجحت فى النهاية فى إثبات تلفيق التهمة ، وبراءة المتهم .

صديقى (رأفت) .. لن أدخل معك أيضاً فى تفاصيل طويلة حول ظروف هذه القضية وملابساتها .

لكن يكفى أن تعرف أنها كانت البداية الحقيقية بالنسبة لى .. وكان حكم البراءة الذى دوّى فى المحكمة بمثابة ميلادى الحقيقى فى مهنة المحاماة .

كانت الصحافة والرأى العام كله يقف ضد ذلك الرجل البرىء ، ويدينه على جريمة قتل بشعة ، راح ضحيتها ثلاثة أشخاص ، منهم طفل صغير .

وتدريجيًّا بدأ الرأى العام يتعاطف مع دفاعى ، ويتحوّل إلى الإشادة بمرافعتى ، التى برّأت الرجل ، وأوضحت للعدالة المتهم الحقيقى ، لحظة محاولته الهروب من البلاد .

وعرفت طريقى إلى الشهرة ، وتزاحمت القضايا إلى مكتبى الصغير الذى تحوَّل إلى مكتب كبير ، فى منطقة راقيـــة .

وتزايدت شهرتى بعد أن تزايد نجاحى .. ولمع اسمى فى عالم المحاماة .

لم أصدق أن كل ذلك قد تحقق خلال سنة واحدة .. سنة واحدة فقط ،أصبح بعدها اسم (مدحت عبد السلام) يدوِّى فى عالم المحاماة ، والفضل فى ذلك لتلك المرأة النورانيـة ، التى آمنت بى ، وأعادت لى الأمل والثقة فى النفس .

ها هو ذا قد تحقق النجاح المادى بجوار النجاح الأدبى ، الذى لم تصدقه (كريمة) وآمنت به (عبير) .. وكنت أحتاج إلى إيمانها وثقتها ، لكى أنجح ..

(عبـير) التى عرفت فيما بعـد أنها كانت تحضر جلسات مرافعاتى لترانى وأنا أترافع فى القضايا مختبئة فى أحد أركان المحكمة ، حتى لا أشاهدها ووجهها ينطق ببريق السعادة ، لما أحققه من نجاح متواصل .

كنت خلال هذه الفترة ، وبعد أن حققت نجاحى الأول فى القضية التى ترافعت فيها ، أحاول الاتصال بها فى الدار دون جدوى ..

وعندما سألت عنها عرفت أنها سافرت إلى أمريكا ، للبحث عن ابنها من جديد ، وستعود خلال شهر ..

ولكن مرَّت عدة شهور ، دون أن تتحقق هذه العودة .

لم أقطع الأمل .. وظللت أستأنف طريقى فى النجاح فى انتظار عودتها ، حتى تأتى لتجد أمامها زوجاً أكثر شهرة ونجاحاً .. تجد ذلك الرجل الذى يليق بها ، والذى وعدتها أن أكونه ..

وذات يوم جاءنى أحد زملاء الدار القدامى .. جاءنى بعد أن غادر الدار إثر شفائه ؛ ليرفع دعوى ضد أقاربه ، الذين استغلوا فترة وجوده بالدار ، للاستيلاء على أمواله ، وعقاراته ، بحجة مرضه النفسى ، وعدم أهليته لإدارة هذه الأموال .

وكان أول سؤال سألته حين حضر إلى مكتبى :

– ألم تحضر (عبير) بعد إلى الدار ؟

أجاب مندهشاً :

– ولكن (عبير) لم تفارق الدار .

صرخت دون وعى :

– ماذا تقول ؟.

أجابنى والدهشة لا تفارقه :

– إن (عبير) لم تزل مقيمة بالدار منذ أن تركتها .

قلت وأنا غير مصدق :

– ولكنى سمعت أنها سافرت .. لقد أخبرنى صاحب الدار بذلك .

أجابنى وهو يهز رأســه بإصرار ، ويقلب شفتيه فى تعجب وحيرة :

– أؤكد لك أنها لم تفارق الدار منذ أن بارحتها .. لقد كانت تتباهى دائماً بنجاحك ، وتحمل لنا صفحات الجرائد التى تشير إلى مرافعاتك ، وبراعتك فى القانون .

وقرّرت أن أذهب إلى الدار فى اليوم التالى .. لن

أفعل كما فعلت من قبل ، بالاتصال مسبقاً مع صاحب الدار ، والسؤال عنها .

أو المرور عليه قبل دخول مبنى الدار وحديقته .

سأتوجه إلى هناك مباشرة ؛ لأتأكد مما قاله لى ذلك الرجل .

وأبحث عن (عبير) وسط النزلاء ..

* * *



وذهبت لأراها تجلس فى حديقة الدار.. ونفس الجمال النورانى الذى كان يشع منهـا ، حينما رأيتها للمرة الأولى لم يزل يضفى عليها بريقه وبهاءه .

وحينما رأتنى مقبلاً عليها قفزت من فوق مقعدها ، وجرت نحوى ووجهها ينطق بالفرحة والاشتياق .

ولكنها تسمَّرت فى مكانها فجأة.. وبدا عليها وكأنها قد تذكرت شيئاً ما ، فتبدلت ملامحها فى الحال من الفرحة إلى الاضطراب .

واقتربت منها متسائلاً :

ـ (عبير) .. لمـاذا كنت تخفين وجودك عى ؟ ما الذى جرى ؟.

ـ لم أرغب فى أن تنشغل بى عن قضاياك وأعمالك .

ـ إن كل ذلك لم يكن ليساوى شيئاً بدونك .. أنت تعرفين أن كل هذا النجاح والبريق ، كان الفضل فيه لله ولك .. فكيف تحاولين إخفـاء وجودك عنى ، وأنت المشعل الذى أضاء ويضىء لى الطريق ؟

ـ (مدحت) .. إن كل ما حققته كان الفضـل فيـه لمجهوداتك ، وإصرارك ، ومثابرتك .. إننى لم أفعل شيئاً سوى أننى جعلتك ترى نفسك على حقيقتها .. ترى الطاقات الكامنة فيك ، التى كنت تجهلها .

فلا تحملنى فضـلاً لا أستحقه .. وكُفَّ عن أن تجعـل من أى مخلوق الهدف النهائى لآمالك وطموحاتك ..

يجب أن تكون ناجحاً وقويـًا بذاتك ، ولنفسك .. وكفاك أن تعمل من أجل الآخرين .

ـ (عبير).. ماذا تقولين؟ إن الحياة ليست مجرد نجاح مادى وأدبى.. إن الحياة أولاً وقبل كل شىء مشاركة ، وحب ، وتضحية .

لقـد اتفقنا على أن المشاعر الساميـة تأتى فى الدرجة الأولى ، إن طاقة حبك هى التى دفعتنى للنجاح ،وصورتك لم تفارق خيالى فى كل خطوة كنت أخطوها ..

ـ هذا عيبك الوحيد يا (مدحت) .. إنك مغال فى رومانسيتك .

ـ برغم أن الرومانسيـة لا تعد عيباً ، بل دليـلاً على

رقة وارتقاء الإحساس.. إلا أننى سأكون واقعيًا ، وأقول لك الآن هأنذا قد بررت بوعدى لك .. فهل تقبلين الزواج من رجل أحبك ، وسيظل يحبك طوال عمره ؟

كانت إجابتها مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق :

ـ أستاذ (مدحت) .. إننى أراك الآن وقد اجتزت أزمتك تماماً ، بل أكثر من ذلك استطعت أن تحفر نجاحك بيدك ، وتحقق ذاتك من جديد .

وذلك يعطينى القدرة والشجاعة على مواجهتك بالحقيقة ، دون خوف عليك ، أو حرج منك .

إننى أعمل طبيبة فى هذه الدار .. وكل ما حدث بيننا من أحاديث ولقاءات لم يكن سوى جزء من العلاج النفسى الذى نتبعه هنا .. فنحن نتبع أسلوباً جديداً فى العلاج النفسى ، يقضى بإلغاء المسافة بين المريض والطبيب ، دون إشعاره بذلك .

وخاصة ذلك النوع من المرضى الذين يرفضون العلاج النفسى .. فنجعلهم يعتقدون أن الطبيب هو أحد المرضى الموجودين بالدار ؛ حتى يفتح له صدره ، ويبوح له بأزمته .

ويبدأ من هنا دورنا فى العلاج ، بحسب الحالة التى نقابلها ؛ فقد كان دورى محدوداً ، بأن أجعلك تتغلب على أزمتك النفسية دون علاج عضوى ، ثم إعادتك إلى التوازن الطبيعى بينك وبين المجتمع .

لقد كانت قصتى مع الزوج والابن المهاجر قصة كاذبة ، الغرض منها النزول إلى مستوى أزمتك ، واكتساب التعاطف المطلوب بينك وبين الطبيب .

ولما رأيتك منجذباً إلىَّ ، قررت أن أستغل عواطفك نحوى كوسيلة لشحذ همتك ، وتقوية إرادتك ، للعودة للاندماج مع المجتمع .

وأعتقد أنك تغفر لنا كل ذلك ، ما دام الهدف الذى نسعى إليه هدفاً نبيلاً .. والنتيجة واضحة بالنسبة لك .

كما أعتقد أنك الآن تقدر موقفى ، حينما أقول لك إننى لن أستطيع أن أجيبك إلى طلبك بالزواج .

كانت صدمة أليمة لى .. صدمة جديدة فى حياتى .. وظللت للحظات مذهولاً ، وأنا غير مصدق ما سمعته أذناى .. ولا أدرى ماذا أقول .

شعرت بدوار .. دارت الدنيا من حولى .. زاغت نظراتى.. ها هى ذى لطمة أخرى تنزل على رأسى .. هل كتب علىَّ كلما نهضت على قدمى أن أنال لطمة أليمة مميتة من القدر .. لِمَ هذا يا ربى .. لم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول .. لم أشعر بنفسى وأنا أقول، وقد انفجر من داخلى بركان من الغضب :

– إذن فالأمر لا يعدو أن يكون خدعة جديدة .. كل هذا الحبّ .. كل تلك الكلمات .. كل تلك الدموع التى كانت تتساقط على وجنتيك ، كل أولئك لم يكن سوى تمثيلية رخيصة .

وتتكلمين عن الأهداف النبيلة .. أى أهداف نبيلة تلك التى تستغلين من خلالها مشاعر وعواطف إنسان مريض وتوهمينه بالحبّ ؟

من أجل ماذا ؟ من أجل أن يتغلب على معاناته ؟. وهل قدرت مدى المعاناة التى يمكن أن تتخلف له من جديد ، من جراء صدمة أخرى ؟

هل أردت أن تشفينى من خدعة عشتها بخدعة جديدة؟

هل قدرت ما يمكن أن يحدث لرجل يصدم فى عواطفه ومشاعره مرتين ؟.. لا يا سيدتى لا تتحدثى عن الأهداف النبيلة .. إن الأمر لم يكن يعدو بالنسبة لك سوى محاولة لإثبات نجاحك وتفوّقك المهنى ، مهما كانت الوسيلة والأسلوب .

وأنا أشهد لك بأنك كنت بارعة فى أدائك لدورك، إلى درجة جعلتنى أصدق من جديد ، أنه يوجد فى هذه الدنيا المرأة المخلصة الصادقة فى مشاعرها وحبها .

جعلتنى من جديد أعود ، فأسلم قلبى وحبى وإخلاصى لامرأة ، برغم التجربة القاسية التى عشتها .

إنك تستحقين شهادة تفوُّق على علاجك البارع ، ولكنه سيكون تفوُّقاً رخيصاً لامرأة حقيرة .

كانت الكلمات تندفع منى كالطلقات .. لم أدر ماذا أقول .. خيِّل إلىَّ أننى سأتساقط إلى الأرض من فرط عذاباتى وآلامى .. وصدمتى الثانية .. أواه يا ربى !! أواه.

لم يبد عليها أنها صدمت بهذه الكلمات إذ سمعتها تقول :

– أستاذ (مدحت) .. كفاك إهانات .. كان يجب عليك أن تشكرنى.. فلولاى ما كنت قد وصلت إلى المكانة

التى أنت عليها الآن .. وكفاك حديثاً عن الصدمات الجديدة، والمعاناة الجديدة .. فأنا أعرف الآن جيداً أنك قد أصبحت على درجة من القوة والثقة، تحول بينك وبين أية صدمات جديدة .

إن كلاً منا يؤدى دوره بحسب ما هو مطلوب منه .. ودورى فى هذا المكان يقتضى منى ذلك الأسلوب الذى أخبرتك به ، والآن أيمكنك أن تنصرف وتدعنى لأمارس عملى ؟

رفعت إليها عينين زائغتين، وابتسمت بمرارة ، وقلت وأنا ألهث :

ـ تقصدين لتمارسى خداعك .. هل عثرت على ضحية جديدة من بين هؤلاء تمثلين عليها دور الشفقة والحنان والحبّ ؟

أدارت لى ظهرها منصرفة ، ولكنى أمسكت بذراعها بعنف ، دون أن ألحظ تلك الدموع المتحجرة فى عينيها، قائلاً لها :

ـ حسناً .. إننى سوف أنصرف يا سيدتى.. سأنصرف ولن ترينى بعد اليوم .

ولكن أريد منك أن تتأكدى من شيء واحد .. هو أننى لن أسمح لأى امرأة أن تقهرنى بعد الآن .

نعم .. كما قلت.. لقد أصبحت قويًّا إلى الدرجة التى لن أسمح فيها لنفسى بانهيار آخر ، من أجل إنسانة لا تستحق حتى نظرة احتقار .

لقد وقفت على قدمىّ من جديد ، ولن أعود فأسقط على الأرض بعد اليوم أبداً ..

وتركتها منصرفاً ، وقد أعمانى الغضب عن رؤية تلك الدموع المتحجرة ، وهى تتساقط من عينيها .

* * *

١٤ ـ هناك فرق ..

مرّ على هـذا اللقاء العاصف عدة شهور ، أفنيت فيها نفسى فى العمل ، محاولاً الهروب من مرارة هذه التجربة الجديدة .

وكان (إبراهيم) ابن خالتى يعارضنى دائماً فى ذلك الأسلوب ، الذى هاجمتها به قائلاً :

ـ لم يكن يحق لك أن تهينها على هذا النحو .. أنسيت أنك مدين لها بكل ما وصلت إليه الآن من نجاح ؟

قلت والمرارة تملأ نفسى :

ـ لقد كنت أفضل أن أظل فى شقائى القديم ، مؤمناً بصدق حبها ومشاعرها ، على أن أشتى بواسطة خدعة رخيصة ، واستغلال مهين لعواطفى .

ـ إننى لا أوافقك على هذا الرأى .. فلم تكن هناك أى وسيلة أخرى لإخراجك مما أنت فيه ، سوى ذلك الأسلوب الذى اتبعته معك ، ومهما كان هذا الأسلوب فإنه قد أعادك إنساناً جديداً .

وهذا فى حد ذاته سبب لأن يجعلك تدين لها بالفضل ، لا أن تصبّ فوق رأسها جام غضبك ، وكل هذه الإهانات واللعنات .

ـ إننى أتحدث هنا عن خيانة المشاعر ؛ فهى فى ذلك لا تختلف كثيراً عن (كريمة) .

ـ لا .. اسمح لى أن أقول لك : إن الاختلاف كبير ، وواضح.. لقد خانت (كريمة) حبها لك طمعاً فى الثروة والمال .. وأدت خيانتها إلى انهيارك النفسى .

أما (عبير) .. فقد كانت تؤدى معك منذ البداية عملاً نبيلاً ، أفضى فى النهاية إلى شفائك ، وتفوُّقك فى عملك ، وحياتك الاجتماعية .. الاختلاف هنا واضح .

ـ كلتا الاثنتين خانتا مشاعرى .

ـ ولكن هناك فرقاً بين الأهداف النبيلة والغايات الرخيصة .

ـ لا تحدثنى مثلها عن الأهداف النبيلة .. فالأهداف النبيلة لا تبررها إلا وسائل نبيلة مثلها .

ـ وما ذنبها إذا كانت طبيعة عملها تقتضى منها ذلك ؟

ـ أرجوك يا (إبراهيم) ، فلنغلق هذا الموضوع ، ولا تحاول أن تفتحه معى مرة أخرى .. أريد أن أنساه .. أنساه تماماً .

ـ بكل ذلك الكم الهائل من القضايا التى تغرق نفسك فيها .. إنك لا تدع مجالاً لأولئك المحامين الصغار الذين يعملون معك لعمل أى شىء .

ـ أريد أن أعمل .. وأعمل .. لقد فاتنى الكثير .. وأريد أن أعوّض الكثير مما فاتنى .

ـ بل تريد أن تهرب فى هذا التفانى الزائد عن الحد فى العمل .. إنه الخوف من أن تخلى بنفسك لحظة ، فتتذكر وتعيش المعاناة من جديد ..

ـ هل ستعود مرة أخرى إلى هذا الحديث ؟

ـ إن ما يهمنى هو حالتك الصحية .. إنك تبذل مجهوداً جباراً فى العمل ، وهذا سيأتى على حساب صحتك وأعصابك .. إننى أقترح أن تحصل على إجازة ولو لمدة

أسبوع ، تقضيها فى أى مكان هادئ ؛ لتريح جسدك وعقلك .

ـ لا .. لا .. إن أعصابى من حديد .. ولا تخشَ علىَّ من شىء ، فإرادتى الآن تطالبنى بالعمل ، والمزيد من العمل ، وهذا يعنى المزيد من الشهرة ، ومن النجاح ، وهذا محور حياتى الآن ..

ـ وقضية السيدة (رجاء) .

ـ سلمها لـ (ممدوح) .. دعها تقابله ، وتشرح له ظروف قضيتها .

ـ ولكنها تحتاج لمحام قدير مثلك .

ـ إننى لن أدافع عن أى امرأة بعد الآن .. لا أستطيع ذلك مهما كانت ظروف القضية .

فالمرأة أصبحت ترتبط فى ذهنى بالغدر والخديعة .. وأنا لا أستطيع أن أدافع عن إنسان لا أثق به أبداً .

وفتح (إبراهيم) باب الغرفة لينصرف ، ولكنه قبل أن يفعل نظر إلىَّ قائلاً :

– إن عداءك غير عادل يا نصير العدالة .. ومع الأسف أقول : إننى أرى أنك لم تشفَ تماماً .

وأغلق الباب خلفه ، فى حين ظللت للحظات أفكر فى كلماته ، ثم ما لبثت أن عدت أغرق نفسى فى العمل من جديد .

* * *



١٥ ـ الحقيقة المؤلمة ..

وفى أحد الأيام أخبرنى سكرتيرى فى المكتب ، أن هناك رجلاً يريد مقابلتى .

وطلبت منه أن يأذن له بالدخول .

وكم كانت دهشتى ، حينما وجدت أن ذلك الزائر لم يكن سوى ذلك الرجل الصالح ، صاحب الدار .

وقمت لتحيته .. ولكنى شعرت أن رؤيته تعيد إلى ذهنى تلك الذكرى المؤلمة من جديد .. فلم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقول له متهكماً :

– أما زلتم تستخدمون تلك الطرق الخداعية فى علاج المرضى ؟

– أجابنى الرجل فى تسامح واضح :

– أعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر فضل هذه الطرق الخداعية يا أستاذ (مدحت) .

– لا .. لا أنكر بالطبع .. إن لها فضلاً عظيماً .. لذلك سأكتب لك الآن شيكاً بالمبلغ الذى تحدده .. إنه أقل شىء أقدمه مقابل أفضالكم العظيمة علىَّ .

كما أنني سأكتب شيكاً آخر إلى طبيبتكم البارعة .. آسف.. أقصد ممثلتكم البارعة (عبير) .. فقد قامت بالدور الأكبر فى تمثيليتكم الإنسانية .

وقابل الرجل انفعالى الساخر بهدوئه المعتاد ، وقد نمت ملامح وجهه عن أمارات الأسى والألم ، قائلاً لى بنبرة حزينة :

– أعتقد أن (عبير) لن تكون بحاجة قط لشيكاتك .

– لماذا ؟. لأنها تسمو بأهدافها النبيلة فوق المال .

– لأنها ماتت أمس ! !

ووجدتنى أتهالك فوق مقعدى من وقع الصدمة ، وقد انتابنى الذهول ، وأخذت أردّد :

– ماتت ؟! عبير ماتت ؟! غير معقول !.

وأجابنى الرجل بهدوئه الحزين :

– نعم ماتت .. ماتت دون أن تدع لنفسها الفرصة ، لتبرئة نفسها أمامك من اتهامك الظالم .

رفضت أن تحصل منك على حكم البراءة ، حتى فى لحظات وداعها الأخير ..

وكنت لم أزل أردّد وأنا غير مصدّق :

– عبير ! ! عبير ماتت ! !

– أستاذ (مدحت) .. اسمعنى جيداً .. أنت تعلم أن القاعدة التى وضعناها بالنسبة للدار ، هى الاحتفاظ بالأسرار الشخصية للنزلاء ، وعدم إطلاع الغير عليها ، لأى سبب من الأسباب .. ما دامت هذه هى رغبة النزيل .

ومع ذلك فقد كنت مستعداً لمخالفة تلك القاعدة للمرة الأولى وإطلاعك على ذلك السرّ الذى أخفته عنك (عبير) ، ورفضت أن تعرفه عنها ، لولا إصرارها وتوسلها لى بالمحافظة على هذا السرّ.. أما الآن ، وقد غادرت الدنيا ، فإننى أعفى نفسى من الاستمرار فى الحفاظ على هذا السرّ.

إن ما لا تعرفه عن (عبير) ، هو أنها قد جاءت إلى هذه الدار منذ ثلاث سنوات ، بعد أن أكد لها الأطباء أن تلك السنوات الثلاث هى كل ما تبقى لها من الحياة .

فقد أصيبت بمرض خبيث استشرى فى جسدها ، ولم يعد هناك أمل فى علاجه ، أو الشفاء منه .

ولم يعد لدى الأطباء ما يقدمونه إليها ، سوى بعض المسكنات ، التى توقف الآلام الرهيبة لذلك المرض .

وقد أعقبت تلك الصدمة العنيفة .. فجيعتها برحيل زوجها ، وابنها عنها فقصة ذلك الرحيل كانت حقيقية ، ولم تكن كاذبة كما أخبرتك ، وكان كل ذلك كافياً ؛ لكى تسلم نفسها للانهيار واليأس ،وهى تنقم على تلك الدنيا التى أتت إليها .

إنسانة غيرها كان يمكن أن تستسلم للأحزان، تقتلها قبل أن يفتك بها مرضها الخبيث .

ولكنها لم تستسلم ، بل أرادت أن تستغل السنوات الثلاث الباقية من عمرها فى إسعاد الآخرين .

أرادت أن تمد يدها بفعل الخير إلى من يحتاجونه، قبل أن ترحل عن الدنيا .

فجاءت إلى دار القلوب المعذبة ، لتقضى بها البقية الباقية من عمرها وسط غيرها من البؤساء، الذين أرادت أن تسعدهم ، وتساعدهم ، برغم أنها كانت أحوجهم إلى المساعدة .

لم تكن طبيبة معينة بالدار كما أخبرتك .. ولكنها

كانت ملاكاً ، ينشر رحمته على أولئك المعذبين ، الذين رأيتهم فى الدار ، وكنت واحداً منهم .

وظلت تؤدى دورها النبيل ، حتى اللحظات الأخيرة من عمرها القصير ، قبل أن تودع هذه الدنيا .

وأخذت الدموع تنسال على خدى ، وأنا أهزّ رأسى أسفاً وندماً .

فيما تابع الرجل حديثه ، قائلاً دون أن يعبأ بدموعى :

– بقى شىء واحد لم تعرفه ، وأصرَّت (عبير) على إخفائه عنك ، وهو أنها قد أحبتك فعلاً .

أحبتك بكل ذرة فى كيانها المريض .

لم تكن بالنسبة لها إحدى الحالات الإنسانية التى تحاول مساعدتها ، ومداواة جراحها ، مثل بقية نزلاء الدار .

بل كنت حبها الكبير ... الحبّ الذى تسلل إلى مشاعرها الراحلة ، وقلبها اليائس أمام المرض .

ولكنها كما لم تجد أمام حبك الذى تسلل إليها سبيلاً لمقاومته، كانت تعرف أنها لن تجد أمام قدرها المحتوم سبيلاً لمعاندته .

فلم تقبل أن تجعلك تشقى بزواجك من امرأة مريضة مثلها .. أيامها فى الدنيا معدودة .

ثم قام واقفاً وهو يمد لى يده بخطاب قائلاً :

ـ لقد طلبت منى أن أسلمك هذا الخطاب أمس ، قبل رحيلها بساعات .

* * *



١٦ ـ خطاب، ووصية ..

وأمسكت بالخطاب لأفضه وأقرأه بأصابع مرتعشة ، وأنا أنشج فى بكاء حار :

« حبيبى (مدحت) .. حينما تقرأ هذا الخطاب أكون أنا قد فارقت هذه الدنيا .. إننى أعرفك جيداً حساساً ، تحمل نفسك بأكثر مما تستحقه .. أريد منك أن تعدنى بألا تسلم نفسك مرة أخرى لمشاعر الندم ، وتنحنى تحت وطأة عذاب الضمير .

فلم يكن لك يد فى كل هذا .. لم تكن تعرف شيئاً عن مرضى .

وعن ظروفى التى أخفيتها عنك خوفاً عليك .

كل ما حدث لم يكن لى ولا لك يد فيه .. إنها ترتيبات القدر ، وقد أراد أن يكون كل شىء بيننا على هذا النحو .. فنحن لا نملك اختيار أقدارنا ولا تغييرها ، ويجب ألا نبكى على شىء لا نستطيع اختياره ، أو تغييره ، أو دفعه ..

عليك أن تعدنى بأن تظل حريصاً على النجاح الذى أحرزته ، محتفظاً بشخصيتك الجديدة القوية .. وألا تتخلى عن روح التفاؤل والأمل .. ذلك الأمل الجميل الذى سعدنا بتحقيقه معاً ..

ولى عندك مطلب آخر .. إذا استطاعت الأيام أن تجعلك تلتقى يوماً ما بابنى (عمر)، أرجو أن تقول له : إن أمه فارقت هذه الدنيا .. وهى لا تجد فيها سوى اثنين : أنت وهو .

أرجوك أن تحافظ على كل ما طلبته منك من وعود . ومن يدرى قد تتقابل أرواحنا يوماً ما فى ذلك العالم الآخر ، حيث لا خيانة ولا خداع ، ولا مرض ولا فراق ؟ وربما قد نستطيع فى ذلك العالم ، أن نحقق ذلك الحلم الجميل ، الذى لم يمكننا القدر من تحقيقه على الأرض » ؟

(عبير)

وألقيت برأسى على المكتب ، وأنا منخرط فى بكاء عنيف ..

* * *

عزيزى (رأفت).. وحتى اليوم لم أزل أبذل العديد من المحاولات للبحث عن (عمر) ابن (عبير) ، حتى أبلغه برسالة أمه ..

كما لم أزل أحرص حتى اليوم على الذهاب إلى قبر تلك المرأة النورانية، وأرجع بذاكرتى إلى الماضى .. إلى لقائنا الأول ، وكيف بدأ بإهانتى وتجريحى لها ، وإلى لقائنا الأخير ، وكيف انتهى بنفس الإهانات والتجريح .. وأتخيل ما بين اللقاءين من ذكريات حلوة .. تلك الكلمات الرقيقة والنظرة الحانية .. اللهفة فى اللقاءات التى كانت تجمعنا وتلاشى الزمن فى اللحظات التى نقضيها معاً ..

العزيمة التى كانت تشحذها فى نفسى .. والأمل والتفاؤل اللذان زرعتهما فى روحى اليائسة .

وأعود فأنظر إلى قبرها ، وكأننى أتحدث إليها ، وأستمع منها :

– (عبير) .. إننى لن أسامح نفسى أبداً على ما اقترفته فى حقك .

– أما أنا فإننى أسامحك من كل قلبى .. لقد أحببتك ، ومن يحب لا يعرف إلا التسامح .

ـ لقد قابلت حبك الكبير ، وتضحيتك بالجحود .
ـ إنك لم تكن تعرف .. لا تعذب روحى فى السماء بعذابك على الأرض .. هل نسيت وعدك ؟
ابتسم للحياة ، وأقبل عليها ، بكل ما زرعناه معاً من تفاؤل ، وأمل وعزيمة .. أرجوك يا حبيبى .. لا تخلف وعدك ..
ووجدتنى أردد لنفسى :
ـ أعدك .. أعدك بذلك يا حبيبة عمرى .

* * *

عزيزى (رأفت) .. هكذا يا صديق كانت نهاية قصتى معها .. وذلك هو دورها العظيم فى حياتى .
ومهما حييت .. فلن أنسى طوال عمرى ذلك الملاك المعذب ، فى صورة امرأة لم تعرف فى عمرها القصير على هذه الأرض ، سوى أن تكون مثالاً حيًّا للتضحية ، وإنكار الذات ...

* * *

[تمت بحمد الله]

● العدد القادم ●

يا قلب لا تغفر ..

فقدت (هويدا) شقيقها فى حادث سيارة ، ويتضح أن والد قائد السيارة من الشخصيات البارزة ، مما يعاونه على استئجار شخص يعترف بالحادث زوراً .. وتصر (هويدا) على الانتقام من القاتل الحقيقى ، ولكنها تقع فى حب شقيقه (طارق) ، وهنا يبرز صراع قوى فى أعماقها ..
أتغفر لقاتل شقيقها من أجل حبها؟.. أم تسعى للانتقام ، وتأمر قلبها ألا يغفر ؟
أتختار الحب أم الانتقام ؟

* *



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



ا. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

هى فى حياتى

«تعرض (مدحت) لصدمة عاطفية حادة زلزلت كيانه، وكادت تعصف بحياته، لولا أن أرسل القدر فى طريقه ملاكًا رقيقًا فى صورة إمرأة استطاعت أن تنتشله من وهدة اليأس إلى ذروة النجاح .. ولكن ما هو المصير الذى ستؤول إليه علاقتهما .. تلك العلاقة التى نسجت خيوطها من نسيج الحب والألم» ؟

الثمن فى مصر [illegible]
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر [illegible]ية والعالم